وزارة الثقافة

شعراء فلسطين العربية في ثورتها القومية

تأليف: إبراهيم عبد الستار

رقمنة

وزارة الثقافة
Ministry of Culture

شعراءُ فِلَسطين العربيَّة
في ثورتها القوميَّة

تأليف: إبراهيم عبد الستَّار

صدرت الطَّبعة الأولى منه عام ١٩٤٠
عن نادي الإخاء العربي في حيفا

وزارة الثقافة الفلسطينية
سلسلة الموروث الثقافي
اسم المؤلف: إبراهيم عبد السَّتَّار
اسم الكتاب: شعراء فلسطين العربية في ثورتها القوميَّة
الطبعة الأولى: ١٩٤٠ عن نادي الإخاء العربي بحيفا

الطبعة الثانية: ٢٠٢٢
مراجعة وتدقيق: رشيد عِناية - نور عرفات
تصميم الغلاف: فاطمة حسين
لوحة الغلاف للفنانة: صوفي حلبي

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعمال المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذنٍ مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission of the publisher.

فلسطين
www.moc.pna.ps

شعراء فلسطين العربية
في ثورتها القوميَّة

تقديم

سيادة الرَّئيس محمود عبَّاس «أبو مازن»

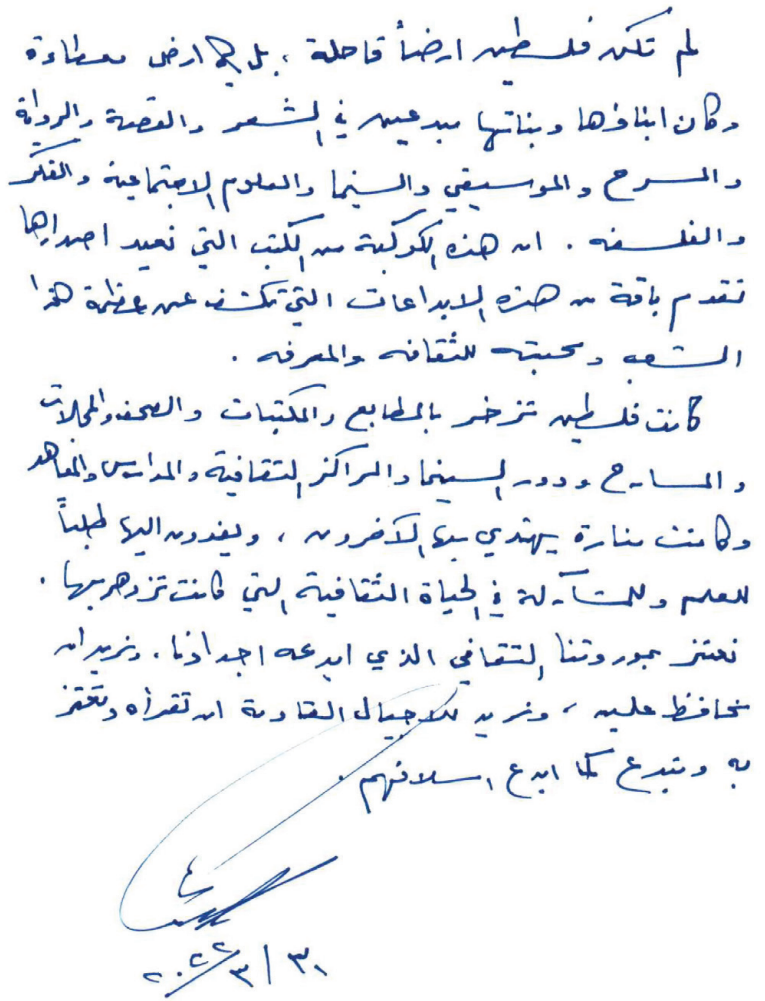

لم تكن فلسطين ارضاً قاحلة، بل كانت ارضاً معطاءة وكان ابناؤها وبناتها مبدعين في الشعر والقصة والرواية والمسرح والموسيقى والسينما والعلوم الاجتماعية والفكر والفلسفة. ان هذه الكوكبة من الكتب التي نعيد اصدارها تقدم باقة من هذه الابداعات التي تكشف عن عظمة هذا الشعب وحبه للثقافة والمعرفة.

كانت فلسطين تزخر بالمطابع والمكتبات والصحف والمجلات والمسارح ودور السينما والمراكز الثقافية والمدارس والمعاهد وكانت منارة يهتدي بها الآخرون، ويفدون اليها طلباً للعلم والمشاركة في الحياة الثقافية التي كانت تزدهر بها.

نعتز بموروثنا الثقافي الذي ابدعه اجدادنا، ونريد ان نحافظ عليه، ونريد لأجيال القادمة ان تقرأه وتعتز به وتبدع كما ابدع اسلافهم.

٣٠ / ٣ / ٢٠٢٠

الإهداء

إلى قلب العُروبة الخفَّاق، وركنها الرَّكين

فِلَسطين الثَّائرة، وأحرارها المناضلين

إبراهيم عبد الستَّار

كلمة الهيئة الإداريَّة

ليس هذا الكتاب إلَّا توطئة لتاريخ الحركة الأدبيَّة وأقطابها من الشُّعراء المجلّين الذين ساهموا في بعث الحياة الوطنيَّة وهزّ الوعي القوميّ وحضّ الشَّعب على العمل المجدي والذَّود عن الحمى. وليس هذا سجلًّا شاملًا يبحث الكاتب فيه أو ينقِّب عن مآثر جميع شعراء الثَّورة في مواقفهم الخطابيَّة وأعمالهم الأدبيَّة، ولكنَّه مجمل لكتاب شامل مفصَّل ومرجع لمؤرّخ الأدب العربيّ في ثورة فِلَسطين القوميَّة.

ولئن تناول المؤلِّف موضوعًا كهذا في هذا الظَّرف العصيب، فَنِعْمَ ما تناول في وقتٍ نحن أحوج فيه ما نكون إلى الأدب الثَّائر، لا المتخاذل المتمايع، ونحن في أمسِّ الحاجة إلى تمجيد الثّرى الذي درج عليه النَّبيُّون والمصلحون والذَّائدون عن الوطن. ناهيك أيُّها القارئ عن تجديد ذكرى ثورة فِلَسطين الدَّامية، وناهيك عن إحياء الرُّوح الوطنيَّة الخالصة وتخليد من استُشهِدوا في ساحة الجهاد من أولئك الأبطال المغاوير الذين تركوا قبسًا من نور اليقين؛ يقين الإيقاظ نستنير به في دجوات الأيام المظلمة.

إنَّنا إذ نقدِّم رئيس هذا النَّادي؛ الأستاذ إبراهيم عبد الستَّار في هذا الكتاب، نعتقدُ جازمين أنَّنا بلا فخر قد قدَّمنا واجبًا سديدًا مجديًا لتراث أدبنا العربيّ، وشعرنا الذي هو واحة الآداب العربيَّة المكرمة.

إبراهيم عبد المجيد حماد

مقدِّمة

نـرى فلسـطين الآن وفيهـا أنـوار تتلمـس الحقيقـة واليقـين وفيهـا تحفـز إلى تيـار الحيـاة، يرسـو بسـفينتها عـلى شـاطئ مـن المثـل الأعـلى؛ نـرى فيهـا صراعـا بـين أمـواج الظـلام الاسـتعماري وظـلام القـوى الرجعيـة الجامـدة المتحجـرة أمـام دوافـع الفكـر مـن ناحيـة، وبـين قـوى النـور الهـادف إلى بعـث حيـاة جديـدة تتـواتى مـع مثـل العـالم المنشـود الـذي يضـع لكواكبنـا رواسي راسـخة مـن الحيـاة الثريـة في مثلهـا وفي وئامهـا. وإذا رجعنـا نحلـل الوضـع كـما نـراه الآن في هـذا القطـر نجـد أن الأسـباب التـي دعـت إلى وجـود هـذا الـصراع تعـود إلى مسـببات هـي في مجموعهـا تـدل عـلى أن الحكـم الحـالي وهـو الحكـم البريطـاني عندمـا جـاء إلى فلسـطين وجـد تركـة لـه تريحـه مـن أعبـاء العمـل عـلى إضعـاف نفسـية الشـعب العـربي في هـذا الـثرى. فقـد أتى هـذا الحـي إلى فلسـطين بعـد أن خلـف الأتـراك تركـة موبـوءة إذ إنهـم كانـوا يعملـون عـلى تقييـد المـرأة وعـلى تشـجيع طبقـة مـن الأمـة هـي طبقـة الـذوات حسـب، وكان تشـجيعهم لهـا تشـجيعًا لتيـارات المـادة والتكالـب عـلى أوضـار الحيـاة لأنهـم يعلمـون أن في تشـجيع هـذا التيـار تلويحـا لجمـوع الشـعب بـأن هـذا هـو هـدف الحيـاة رغـم أنهـم لا يسـتطيعون أن يصلـوا إليهـا. فهـم بذلـك يقهقـرون الشـعب في حياتـه الماديـة ويضعـون أمامـه مُثُـلًا لا تمـت إلى المثـل العليـا بـأي علاقـة.

فأربعمئـة عـام مضـت عـلى هـذا الرحـاب الفلسـطيني وهـو مدقـع في حياتـه الثقافيـة حتـى ليـكاد ينـسى لغتـه وآدابـه وسـجاياه. ولا يمكننـا أن نغفـل أمـر الإشـارة التـي أتـت مـن الأسـتانة في أواخـر ذاك العهـد تأمـر

بتتريك العناصر العربية، وكانت تلك الإشارة تتعلق بالعمل على تحويل القومية العربية إلى قومية تركية عن طريق نشر اللغة والآداب التركية، وعن طريق نشر العادات التركية والفكر التركي وإحلال جميع ذلك محل تراث العرب فيما هو من ذلك الحقل؛ السجايا والفكر واللغة.

ونعود قليلا هنا إلى ما قبل هذه الفترة؛ فترة جمعية الاتحاد والترقي التي حملت لواء تتريك العناصر العربية لترى ملوك بني عثمان يشجعون الرشوة ويتمسكون بأهداب الأغنياء والمترفين في فلسطين العربية ليتحكم هؤلاء الأغنياء والمترفون بجموع الشعب من عامل وفلاح تحكما يتيح لهم أن ينصبوا المشانق على معابر الطرق يقضون بها على حياة الأفراد الكادحين؛ لأنهم لم يدفعوا الضرائب التي يفرضونها على الأحياء والقرى والمدن. فالرشوة والمحسوبية والعائلية والطائفية كل هذه الجراثيم الفتاكة في جسم أمة عريقة تريد حياة اجتماعية نابضة، كل هذه الجرائم الاجتماعية استطاع الأتراك أن يتركوا لها جذورا في رحاب فلسطين العربية، وعندما تسلم هذا القطر أو هذا الرحاب حكم آخر بقوة الحديد والنار كان شأنهم في ذلك شأنهم في أي قطر عرب آخر فهم كانوا يهدفون في الأقطار العربية الأخرى إلى محو القومية العربية وكانوا يهدفون إلى إيجاد جراثيم الانحلال الاجتماعي.

ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن الأتراك في تمكنهم من إيجاد جراثيم الانحلال الاجتماعي كانوا يستمدون عونا في تمكنهم هذا من أنهم هم أنفسهم كانوا في مستقر دولهم وعواصمهم منحلين اجتماعيا يسودهم حكم

فيه الكثير من التقهقر والمحسوبية والعائلية والطائفية وإفناء حرية الشعب. لكن الفرق بينهم وبين الشعوب التي يحكمونها في الأقطار العربية وفي الأقطار الأخرى كأقطار البلقان مثلا؛ هو أن الأتراك كان بينهم فريق لامع يعمل خفية على قلب الوضع بالنسبة إلى أمتهم. بينما الأقطار التي كانوا يحكمونها لم يكن بينهم مثل هذا الفريق رغم وجود حركة بادرة من هنا ومن هناك بين الفينة والفينة، لكنها ليست بالحركة المطلقة إطلاقا يقينيا فهي حركة عابرة لا تمت إلى جذور حياة الشعب لتبعثه بعثة قوية ينهار إثرها بنيان الظلم والظلام، وهذا ما كان يقصده فريق النهضة في الوطن التركي ذاته، سواء أكان أفراد هذا الفريق في الأستانة أو في الريف التركي. أن لا يوجد مثل هذا الفريق في الوطن العربي وفي فلسطين العربية على وجه الخصوص، جعل مجال لعناصر الارتداد والانهيار سواء أكانا اجتماعيين أم سياسيين، وسواء أكانا يتعلقان بحياة الفن أو بحياة الثقافة على وجه عام جعل مجال تلك العناصر يؤثر على تهدم وإبادة مزايا القومية والحياة النابضة في فلسطين العربية وفي الأقطار العربية الأخرى. فشعب لا يعرف حرية المرأة ولا يمارس حرية الفلاح والعامل، وشعب تكبت فيه كبتا دائميا نبضات الفن القومي الحر الذي يفجر ينابيع الانعتاق والدأب شطر المثل الأعلى، لا ينتظر منه أن ينتج إنتاجا قوميا سواء أكان هذا الانتاج في حقل الآلات والمعادن أو في حقل الزراعة والحدائق أو في حقل الفنون والمعارف والعلوم والثقافة. وقد ذكرت هذا الحقل في المرتبة الثالثة لا لأن قيمته أقل من الحقلين الأولين بل لأجعل أسلوب الحياة الذي كان يعيش أجدادنا في هذا الرحاب ماثلا للعيان في مظاهره من الشارع إلى

المعمل إلى هيكل الثقافة. وهيكل الثقافة قبل كل شيء هو الدافع الأول والأخير. وهل تتحرك حتى الآلة الجامدة بلا فن وبلا ثقافة؟

مرت فترة الحي التركي الطويلة فتركت ما تركت من انهيار بقي أثره حتى عامنا هذا فلم يجد كما ذكرنا الخير الذي تلا الحكم التركي أي صعوبة في تأصير قيوده وإحكام هذه القيود في أيدي شعب يعاني ما كان يعاني من انهيار كاد يصبح طبيعة ثانية له.

وندع هذه الفترة لنرجع قليلا مع موكب تاريخ هذا القطر إلى عصر لقي ألوانا من الحياة تترنح بين المجد وين قوة من الانقسام الداخلي في الأمة العربية فهو عصر كان فيه خصوم الأمة العربية منها وفيها. وإن كانت عناصر من القوميات الأخرى غير العربية قد ساعدت أيضا على إيجاد باعث على الانهيار؟ لكن هذه العناصر لم تكن وحدها هي العاملة فيما يتعلق بذاك بل وجدت بادئ بدء بين جموع الشعب العربي طوائف وفرقا يرجع عهدها إلى آماد وآماد من الزمن، وأتمكن من تحديدها أو تحديد بدئها بعصر عثمان بن عفان؟ فإثر الفتنة التي سببتها محسوبية عثمان في سياسته بالحجاز ونجد والأقطار العربية وفلسطين العربية على وجه الخصوص؛ إثر تلك الفتنة انقسمت الطبقة الحاكمة في الشعب العربي إلى علويين وأمويين. وفيما بعد انقسمت الطبقة الحاكمة في الشعب العربي إلى ثلاث فئات وهي الفئة العلوية والفئة الأموية والفئة العباسية، نقول هذا رغم أن التقارب بين الفئة العلوية والفئة العباسية كان ذا نصيب يعتد به إلى حد أن أحد الخلفاء العباسيين وهو المأمون صمم على مبايعة علوي بالخلافة

ليحل مكانه بعد انقضاء مدة خلافته. ولا يغررنا هذا المظهر بحال من الأحوال لأن ما قام به المأمون لم يكن سوى نزعة طارئة بالنسبة إلى السياسة الدائمية التي كان يجرى عليها الخلفاء العباسيون، فهم في سياستهم تيك لم يكونوا إلا وجلين من طروء النفوذ العلوي فقد تناسوا بل نسوا فعلا تأثير علاقة النسب في تسيير دولاب الدولة، وأصبح للتراث السياسي هدف قائم بحد ذاته وهذا الهدف يأتي في عناصره الأولى ألا تضيع الخلافة من أيدي العباسيين متسربة إلى أي سلالة أخرى ولو كانت السلالة الفاطمية. وكون العباس جد السلالة العباسية الأول، كونه عم النبي محمد بن عبد الله بن عبد المطلب النبي العربي القرشي لم يحل دون أن تكون هذه السياسة مقصودة لذاتها ودون أن يضع خطوطها خلفاء عباسيون هم على تلك الغرابة في النسب من فئة خصومهم الثانية.

إذن فلأمته العربية بفلسطين والأقطار العربية الأخرى، وقد كانت قبل الفترات الأخيرة من العصر العباسي تترنح أو تتأرجح بين دوافع سياسية متعددة لكنها تحصر كما ذكرنا في دوافع ثلاث ووسط هذه الدوافع تقدم إلى ميدان العمل السياسي رجال من جموع الشعب لكنهم عندما تقدموا تقدموا عن طريق الفئات الحاكمة فهم متوائمون مع الفئات الحاكمة في بدء الأمر منفذون لما تأمر به تلك الفئات.

لكن ما يهدفون إليه شيء آخر. ويختلف هذا الشيء بمقدار ما يحظى الرجل منهم فيها يتعلق بعالم الضمير القومي والثقافة القومية والميل الكاد الدائب إلى الإصلاح الاجتماعي.

في هـذه الفـترات مـن الزمـن التـي أتـت في زمـن تقهقـر الخلافـة العباسـية نـرى رجـلا كصـلاح الديـن الأيـوبي ينهـد إلى إنقـاذ الأمـة العربيـة وإلى إنقـاذ فلسـطين العربيـة في فـترة سياسـية مـن أحلـك الفـترات التـي مـرت بهـا الأقطـار العربيـة وفلسـطين العربيـة. فينقـذ الموقـف وتعـود إلى الـشرق العـربي ميزاتـه الثريـة في عـالم السـجايا، وأقـل مـا يمكننـا أن نقـول إن صـلاح الديـن الايـوبي اسـتطاع أن ينقـذه مـن حيـاة الشـعب العـربي في فلسـطين العربيـة والأقطـار العربيـة الاخـرى، هـو أنـه أثبـت أن هـذا الـشرق العـربي يمكنـه إذا أراد أن يـرد طعنـة المغـير. إلا أن صـلاح الديـن عالـج الموقف سـيفا ولم يعالجـه قلبـا وفكـرا؛ وهـذا لا يجعلنـا نقـول إن صـلاح الديـن الأيـوبي لم يكـن عـصره مزدهـرًا في عـالم الفنـون والفكـر إذ إن الشـعب العـربي في عـصره مـارس مـا لا يقـل عـما كان يمارسـه في أي عـصر مـن عصـور الخلفـاء العباسـيين فيـما تتعلـق بـذاك؛ أي بالفـن والفكـر. لكـن صـلاح الديـن لم يوطـد للملـك بعـده كـما وطـد الخلفـاء العباسـيون وكـما وطـد قبـل العباسـيين الأمويـون والراشـدون لا لأن الرجـل تنقصـه القـدرة في هـذا الحقـل بـل لأن أعبـاءه كانـت أكـثر مـن أن يضطلـع بهـا فـرد واحـد لـه قـدرة هـي قـدرة فـرد مـن أفـراد كوكبنـا عندمـا يتوفـر عـلى عمـل خلـق لـه. فتيـك الأعبـاء لا يضطلـع بهـا فـرد مـن أفـراد كوكبنـا، هـذا كـما ذكرنـا لـه تيـك القـدرة ولـه إلى جانـب تيـك القـدرة الـشيء الكثـير مـن مزايـا السـجية والضمـير والعقـل، بـل يضطلـع بهـا أفـراد نـادرون يجـود بهـم الزمـن في كل ألـف عـام مـرة، ووجـوده نـدرة مـن النـدر فهـم أعـلى مـن مسـتوى أفـراد كوكبنـا، هـذا إذا مـا وجـدوا. ولا أشـك في أن الزمـن جـاد بـه ولكـن عـلى هـذا الوجـه الـذي أذكـره، وهـو أنهـم كانـوا نـدرة النـدر. فصـلاح الديـن

الأيـوبي لم يكـن مقـصرًا إذا مـا قـورن بخلفـاء العـرب وملوكهـم، ولـو أن الرجـل أحاطـت بـه زمـرة مـن الأمـة العربيـة في عـصره فأصلـت خططـه وجعلـت لهـا قابـلا مـن الزمـن يجعـل منـه إنـارة لطريـق في الحيـاة، جديـد كل الجـدة، يسـلك الأمـة العربيـة إلى قـلاع مـن حيـاة متينـة مراكزهـا موجـدة في نواحـي الشـعب، لـو انوجـد ذلـك لـكان مـن المؤكـد أن تزدهـر في الأمـة مدنيـة لا تـدع لعنـاصر مثـل عنـاصر المماليـك والأتـراك متسـعا لأن يتسربـوا إلى بنيانهـا. وأن يعملـوا عـلى اجتثـاث العنـاصر المؤثـرة في دفعهـا شـطر حقـول المثـل العليـا والعمـل الدائـب لكيـان القوميـة.

وفي هـذا العـصر؛ عـصر صـلاح الديـن الايـوبي نـرى رجـل الموقـف وهـو صـلاح الديـن يتقـدم بخضوعـه ولـو اسـما للخلافـة العباسـية، وفي الزمـن ذاتـه كانـت الدعـوة الفاطميـة قـد بـدأت في القسـم النـائي مـن أفريقيـة، ولا بـد مـن تقديـر هـذا الظـرف السـياسي الـذي انوجـد وسـط ظـرف صـلاح الديـن للوقـوف عـلى نـوع مـن الصعوبـات التـي كانـت تجابههـا معاركـه في الأقطـار العربيـة ذاتهـا، فهـو عندمـا كان يقـاوم جيـوش الأوروبيـين في فلسـطين العربيـة كانـت في الوقـت ذاتـه يلقـى جـوا في رحابـه ليـس بـذاك الجـو السـلس الـذي يتيـح لـه كل مـا يريـد مـن خطـط قوميـة دون عرقلـة تبـدو مـن هنـا ومـن هنـاك.

نـرى في عـصر صـلاح الديـن تموجـا عربيـا صـدر عـن رجـل شرقـي أتى ليصـد غـارة الغـرب عـلى الـشرق وعـلى وجـه الخصـوص غـارة الغـرب على فلسـطين العربيـة في المرتبـة الأولى وعـلى الأقطـار العربيـة في المرتبـة الثانيـة، والرجـل كان ذا مبـدأ دينـي أكـثر منـه ذا مبـدأ قومـي، إلا أن الصـدف جعلـت مـن

مبدئـه مسـاعدا عـلى حفـظ القوميـة العربيـة. والـذي كان يقصـده صـلاح الديـن في كيانـه الضمـيري هـو الـذود عـن الـشرق المسـلم، إلا أن اتجـاه الموجـة الغربيـة وتصميمهـا عـلى إبـادة القوميـة العربيـة جعلـه دون أن يقصـد كبـير التأثـر بإنقـاذ قطـر هـو قسـم مـن الـشرق المسـلم وإن كان في قولنـا قسـم مـن الـشرق المسـلم شيء مـن التجـاوز عـلى الدقـة العاميـة؛ إذ أن فلسـطين هـي قبـل كل شيء قطـر عـربي قبـل أن تدخلهـا العقيـدة الاسـلامية وبعـده. فلسـطين هـي محـط رحـال أزد القبيلـة العربيـة التـي نزحـت قبـل ميـلاد السـيد المسـيح بمائـة عـام مـن أطـراف الجزيـرة العربيـة الجنوبيـة، بـل مـن اليمـن ذاتهـا، ذلـك القطـر الـذي نبعـت منـه كل قوميـة الجزيـرة العربيـة. فهـو منمـي قبيلـة قحطـان، وقحطـان هـي المـرد الأول لتسلسـل الشـعب العـربي؛ فلولاهـا لمـا كان عدنـان ولمـا كان مـا خلـف عدنـان مـن قبائـل. فلسـطين العربيـة تخلصـت مـن الخطـر الغـربي الـذي كانـت تقصـد إليـه شـعوب أوروبـا والممالـك الغربيـة التـي تأسسـت عـلى رحـاب فلسـطين إثـر الغـزوات التـي قامـت بهـا جيـوش الغـرب في عـصر صـلاح الديـن وقـد تقوضـت واحـدة بعـد الأخـرى.

ونعـود الآن إلى تأريـخ الحركـة القوميـة بفلسـطين إلى العـصر العبـاسي فنجـد في أثنائـه فلسـطين العربيـة قطـرا يسـاهم في حيـاة مجمـوع الأمـة العربيـة المسـاهمة ذاتهـا التـي كان يسـاهمها في العـصر الأمـوي، فالقطـر يمـارس حيـاة قوميـة فيهـا جميـع العنـاصر التـي نراهـا في أي قطـر عـربي آخـر أثنـاء ظـل الدولـة العباسـية. وإذا عدنـا إلى عـصر الدولـة الأمويـة نـرى فيـه فلسـطين العربيـة ماضيـة في حيـاة هـي بـين السـلم والحـرب

شأن الأقطار العربية الأخرى التي كان يتسابق المتسابقون من رؤساء الفرقاء الثلاث، والتي كان مصمما كل منهم على أن تكون له السيادة في الأقطار العربية أجمع. وهم فريق علي بن أبي طالب وفريق معاوية بن أبي سفيان وفريق رجال العباس بن عبد المطلب. على أن فلسطين العربية في ذلك العصر مضت في الاحتفاظ بقوميتها وسط المؤثرات المتباينة، وهذه المؤثرات لم تكن لتحول دون قومية فلسطين كما لم تحل مؤثرات أخرى أشرنا إليها في العصور التي تلت العصر الأموي والعصر العباسي.

ونهدف الآن أو نعود للمرة الثالثة إلى القومية العربية بفلسطين في أثناء المدنية العربية الأولى؛ أي في العصر الذي لم تكن فيه العقيدة الإسلامية قد نشرت دعوتها بين ربوع الأقطار العربية، فنرى أزد تستقر في هذا القطر وتنشئ لها طرازا من الحياة في التنظيم والدولة والحقل الاجتماعي والشؤون العمرانية وكل ما يمت إلى حياة أمة عريقة وضرورتها بعلاقة. وهذا الطراز دأب على تكوين أفراد أزد إلى أن أصبح كيانا خاصا له ميزاته التي يتميز بها عن أي طراز آخر مع وجود تقارب في مقومات هذا الطراز القومي في العراق وفي نجد وفي أوساط اليمن والبحرين والحجاز. فالقومية في ذلك العصر؛ العصر الذي امتد ما يقرب من ستمائة عام، كانت متينة الجبهة في هذا القطر العربي. وتأثره بمدنية الرومانيين كان تأثرا منسقا يجعله يذوب في المقومات العربية ولا يذيبها، فنرى القطر يعتز بسجاياه وبآدابه وثقافته مؤثرا إياها جميعا على ما يراه من سجايا الرومانيين وآدابهم وثقافتهم،

ونـرى دلائـل بينـة عـلى وجـود حيـاة عربيـة كاملـة نابضـة بمحفـزات المجـد بالمفاخـر التـي اسـتطاعت الأقطـار العربيـة أن تكـون متاحـة لهـا في أثنـاء تلـك الأعـوام.

ففلسـطين العربيـة كانـت ذات قوميـة راسـخة وقـد يسـاعد عـلى فهـم هـذه الناحيـة مـن القوميـة العربيـة في فلسـطين مـن يريـد الوقـوف عـلى الدوافـع القوميـة التـي تجعـل مـن مواطنـي هـذا القطـر الآن ذادة عنـه، وحـماة لـه، لا يسـتهينون بشـبر منـه. كـما أن مـا مـر عـلى هـذا القطـر مـن كـوارث قوميـة سياسـية مـما أشرنـا إليـه في هـذه المقدمـة يسـاعد عـلى فهـم ترخـص بعـض الأفـراد فيـما يتعلـق بضيـاع هـذا القطـر لكـن الكفـة راجحـة مـع القسـم الذائـد لا القسـم المستسـلم، وسـتبقى راجحـة بـل سـيزداد رجحهـا، ولا ريـب في أن الحيـاة الثقافيـة وأخصـص فأقـول: لا ريـب في أن الحيـاة الفنيـة سـاعدت عـلى تأجيـج نزعـات المحافظـة في نفـوس الشـعب العـربي بفلسـطين، ومـا سـيطلع عليـه القـراء مـن منتخبـات شـعرية في أثنـاء اسـتعراضي لجهـاد شـعراء الثـورة، يـدل عـلى ذلـك أبـين دلالـة ويشـير إشـارة لافتـة إلى أن الفـن العـربي الفلسـطيني والشـعر بنـوع خـاص اضطلـع بمـا يضطلـع بـه الفـن الباعـث المنقـذ. فكـما ذكرنـا سـيلمس القـراء هـذا في صفحـات هـذا الكتـاب الـذي أقدمـه إلى أفـراد الأمـة العربيـة في فلسـطين وفي الأقطـار العربيـة الأخـرى؛ لـيروا مـا هـو في وسـع الفـن أن يوطـده في حقـل القوميـة المتمسـكة بـأداء رسـالة يتـمادى تأثيرهـا عـلى مـدى العصـور والأجيـال.

شعراء الثَّورة

عـام ألـف وتسـعمائة وسـتة وثلاثـين، عـام لا شـك في أنـه فاصـل في تاريـخ فلسـطين العربيـة مـن جميـع نواحيـه مـا كان منهـا متصـلا بـالآداب أو بالعلـوم ومـا كان منهـا متصـلا بالاجتـماع والسياسـة.

إنـا هنـا نحـن معنيـون بالالتفـات إلى موضـع الفصـل في ذلـك العـام بصـدد الآداب العربيـة في ذلـك القطـر العـربي، وبتعبـير أدق، بنـوع مـن تلـك الآداب في ذلـك القطـر وهـو الشـعر. فهـل يمكننـا أن نقـول إن فلسـطين العربيـة أظلـت شـعراء للثـورة؟ الجـواب: نعـم وبـكل تأكيـد. إذ إننـا لـو قارنـا بـين فلسـطين وغيرهـا مـن أقطـار العربيـة بصـدد مـا أنتجـه شـعراء كل بلـد لتطويـر الشـعب شـطر ثـورة جامحـة ذات هـدف تفـك عنـه أغـلال المـاضي لمـا رأينـا إنتـاج الشـعراء في هـذا القطـر يقـل في الكيـف أو الكـم عـن إنتـاج شـعراء الأقطـار الأخـرى.

والأمـر يختلـف هنـا بـين شـاعر وآخـر مـن شـعراء فلسـطين بصـدد المقـدار الـذي سـاهموا فيـه بحركـة الثـورة العربيـة في بلادهـم، فمنهـم مـن كان يعمـل دائمـا قبـل انـدلاع نـيران الثـورة عـلى إيقـاظ الوعـي القـوي الوطنـي عـلى وجـه مشـخص بـين مـصرح تصريحـا لا غمـوض فيـه، ومنهـم مـن كان يلفـت الأنظـار إلى الأخطـار المحدقـة بالوطـن، أمـا العـلاج الوحيـد لقضيـة فلسـطين هـو الثـورة والثـورة لا غـير. ومـن بـين هـؤلاء أو بتعبـير أدق الشـاعران في ذلـك القطـر اللـذان سـلكا هـذا السـبيل هـما محمـد حسـن عـلاء الديـن وإبراهيـم طوقـان. ونحـن شـديدو الأسـف عندمـا نتكلـم عـن

هذين الشاعرين بهذا الصدد وأحدهما لا يتمثل في هذا العالم، إذ إنه قد انتقل إلى العالم الآخر بعيد أعوام الثورة، وهو إبراهيم طوقان، أما أولهما فهو يعيش بين ظهراني وطنه وحماه حتى هذه اللحظة وهو محمد حسن علاء الدين.

ففي الأعوام التي سبقت الثورة كنا نرى في الصحف الفلسطينية والعربية بوجه عام إنتاجا شعريا كثيرا ما يكون بعيدا عن الجو الوطني الذي تتطلبه فلسطين العربية وكثيرا ما يكون ناهيا عن الإصلاح الوطني المنشود في قلب هذا القطر.

فبينما كان الشاعر محمد حسن ينشر في الدفاع قصائده الوطنية في أعوام ١٩٣٢ و٣٣ و٣٤ و٣٥ مهيبا فيه وطنه وحماه فلسطين العربية شطر أفق من الحرية ثمنها التضحية وبذل الأنفس. وبينما كان يعارك في جو الحاضر القاتم أشباح الرحيل التي كانت تتراءى له عندما يلقي بنظره إلى وضع فلسطين العربية كان إبراهيم طوقان في الوقت ذاته يهيب هو بدوره أيضا لمواطنيه إلى تدفع من الآباء وتمزيق القيود الأجنبية التي تكبل وطنه وحماه فلسطين العربية فالأول يقول مثلا في قصيدته «شبح الرحيل»:

إن لم تثريا شعب ثورة

فلانت حقا جامد بجبال

ويفتح الشـاعر هذه القصيدة بهذه الأبيات:

شـبح الرحيل خسئت من تمثال

يزجـي إلى قلبي رؤى الأهوال

شـبح الرحيل أما تكف عن الأذى

شـبح الرحيل أما تني تغشى لي

مـا الذنب ذنبك يا خيال وإنما

هو ذنب شـعب موغل في القال

كم ذا أدار من الكلام سـلافه

وارتـدّ منصاعا لدى الأفعال

إن لم تثريا يا شـعب ثورة ذائد

فلأنـت حقا جامد بجبال

إلى مـا هنالـك مـن أبيـات هـذه القصيـدة التـي كانـت هـي مـن منتجـات الشـاعر محمـد حسـين في ذلـك العهـد تثـير أجـواء جديـدة في خلـد أبنـاء عروبتـه كبـارا وناشـئين فتراهـم يتتالونهـا ويشـيرون إليهـا محسـين بوعـي ودون وعـي أن في هـذا الإنتـاج الشـعري شـيئا فيـما يـضرب عـلى وتـر فيـه شـفاء لقضيتهـم التـي كان يتنازعهـا المـرض إذ ذاك.

وهنا يخلق بنا أن نشير إشارة واضحة إلى قصيدة مجد الخلود في ديوان (أثير) فهنا اتجاه آخر في هز الوعي القوي على تراث فلسطين العربية وهو يهدف فيها إلى ما هو أبعد من ثورة على الوضع السياسي كمظهر من مظاهر الحكم ويتغلغل إلى أصل الداء في تضعضع كيان الحمى إذ يقول:

أين الزعيم لأمة عربية

أين الحكيم له يروح مساعدا

راحت أويقات الزعامة والحجى

وغدا القطيع عن الكلا متباعدا

يا ويح شعبي من طويل سباته

إيان يا شعبي تهب مجاهدا

وما الجهاد الذي كان يقصده الشاعر محمد حسن في هذه القصيدة سوى جهاد ثورة دموية جامحة تقضى على التدخل الأجنبي لكنها أعني هذه، ليست هي الناحية التي أردت أن أدلل عليها في السطور الأخيرة. ففي البيتين الأولين من هذه الأبيات المتمثل بها ثورة على وضع الزعامة في الوطن العربي الكبير المنشود والذي تكون فلسطين جزءا منه لا يتجزأ؛ فهو يفتقد الزعامة العربية الكبرى التي هي العلاج الوحيد لإنقاذ قضية فلسطين العربية ثم في هذه القصيدة نفسها تصريح بين بالحاجة التي يحسُّها الشَّاعر في وطنه العربيّ الكبير

وفي فلسـطين عـلى وجـه الخصـوص إلى الزّعامـة الحقَّـة الشـاملة، فيقـول:

كم ذا أودُّ لكم زعيمًا مرشـدًا

كـم ذا أودُّ لكم حكيمًا ناقدا

مـا همّ كلّ منهما إلَّا العلا

لجموع شـعب قد تمطَّى راقدا

أقـدِمْ بربِّك يا زعيم مخلّصًا

وانثر على الشَّـعب المصيخ شواردا

أقـدِمْ إليه وفي فؤادك وجفة

مـن حبِّه تغدو لهيبا واقدا

ولـدى حجاك مناهج رقراقة

تشـتفّ فيها النّجح يدلف وافدا

أقـدِمْ إليه ففي قدومك راحة

للشَّـعب إن كنت الصَّفيّ الزَّاهدا

فانظـر هنـا إلى التشـوُّف المتحفِّـز الوعـي إلى زعامـة جديـدة حقًّـا تفـرض احترامهـا عـلى أبنـاء الوطـن وعـلى البعـداء عـن هـذا الوطـن. وانظـر إلى تهكُّـم كمـين بـين الزّعامـة الزَّائفـة في البيـت الأخـير إذ يقـول:

أقـدِمْ إليه ففي قدومك راحة

للشَّـعب إن كنت الصَّفيّ الزَّاهدا

هـذان مثـلان وإلّا فالأمثلـة في شـعر محمـد حسـن تتشـعَّب وتتعـدَّد إن تنبسـط في هـذه النَّاحيـة، فهـو إذ يلقـي إثـر اضطرابـات فلسـطين العربيَّـة قصيـدة في احتفـال جمعيَّـة الطَّلبـة العـرب بالجامعـة الأمريكيَّـة في القاهـرة يسـتهلُّها بهـذا البيـت:

شـجتني فلسطين شجا هاج ما بيا

من الشَّـوق والتّحنان شطر بلاديا

إذ بـه يضـع نشـيدًا قوميًّـا لمؤتمـر طلبـة العـرب في فلسـطين، يسـتهلُّه بهـذا البيـت:

أنفس قد شـاقها أسمى مرام

يزدهيـه المجد في أزهى قوام

إذ بـه يوجِّـه قصيـدة تهكُّميَّـة ثائـرة بالزَّعامـة الزَّائفـة زاريـا عليهـا انقيادهـا وتسـليمها معنونـا إيَّاهـا «بالزَّعيـم ونهضـة الشَّـعب» ومـمَّا يقـول فيهـا:

الشَّـعب ينهض إن أمد بيد

ثبـت الجنان موفَّق التَّنظيم

يعلونه سـوط إذا رام الأذى

سطو على دستوره المرسوم

ثمَّ يقول:

مـا ضرّه لو أنَّ كلّ مواطن

لم يطـره أو ناله بذميم

هـو ليس يحيا في المظاهر عابثا

بقضية صارت مثال الشـوم

بـل إنَّه يبني لأجيال تلي

ويميـل أحيانا إلى التَّهديم

مهـما تعذَّب فالعذاب مؤجّج

في نفسـه ميلا إلى التَّتميم

فهـذه الأبيـات هـي مـن قصيـدة كـما ذكرنـا جريئـة الرِّسـالة يرمـي فيهـا الشَّـاعر إلى قلـب وضـع الزّعامـة في حـماه وفي وطنـه، ثـمّ نـرى محمـد حسـن في لحظـة مـن لحظـات الـوداع في وطنـه، أو بتعبـير أدقّ لحـماة فلسـطين يذكـر الرّحيـل، الرحيـل الآسي الشَّـاجي، رحيـل شـعب عـن وطنـه فينـسى بعـاده الخـاصّ ليـذوب في بعـاد الوطـن وألمـه فيقـول:

قلبـي يحدِّثني حديثًا لاذعا

فيـه التَّهكُّم يضحك الألبابا

قلبـي يحدِّثني بيوم مفجع

يـدني العدى ويبعد الأصحابا

يـا قلب لا تنبس بأيّ فجيعة

هل خفّفت شـكوى تبثّ عذابا

يا قلب اسـكت لا تصخ فلعلّ ما

يضويـك يفني روحك الوثابا

وهـذه أبيـات مـن القصيـدة ولا ريـب في أنَّهـا سـتصدر كاملـة مـع أخواتهـا مـن وطنيَّـات الشَّـاعر في ديـوان (نـور مـن الـشّرق). ويمـرّ عـام بعـد اضطرابـات فلسـطين في عـم ١٩٣٣ ويـأتي موعـد ذكـرى شـهداء فلسـطين العربيَّـة في تلـك الاضطرابـات التـي اشـترك فيهـا الشَّـاعر بيـده فـرأى الشُّـهداء يتسـاقطون إلى جانبـه في سـاحة الشُّـهداء بيافـا تسـاقط أوراق

الخريـف، لكنَّهـا هـذه الأوراق لم تكـن صفـراء وفي الذِّكـرى ذكـرى أولئـك الشُّـهداء يقـف الشَّـاعر في منتـدى جمعيَّـة العـروة الوثقـى قائـلًا في مناجاتـه الشُّــهداء:

ذكراكم نار تلظّى في الحشـا

وهـي المدامع تغمر الوجنات

ذكراكـم نور يفيض على الدنى

وهي المشـاعل تمحق الظّلمات

إلى أن يقول:

ذكراكـم يا إخوتي نبع الأسى

متفجِّـرًا من أعمق الحسرات

إنّي ادّعيـت أخوّة وأنا هنا

حيران بين سفاسـف الغايات

يـا ليتني آثرت مثلكما النَّوى

ورضيت عيشـا مثلكم بممات

ونزحـت عن هذي البطاح مخلّفًا

ذكـرى تفيض بأعبق النحفات

وفيها يقول:

وممـول أثرى بما قد باعه

مـن أرض موطنه بنزر هبات

المـال تيّمه وتيَّم لبّه

صـوت النُّقود لديه كالنَّغماتِ

تبًّا له من مجرم أنفاسـه

مسروقة من أنفس رحبات

لكنَّـه مع كلّ هذا مفلت

من ربقة القانون والشّـبكات

أيعدّ هذا سـيدًا متفضِّلًا

ويسـاق سارق حفنة اللّيرات؟

وفي نهاية القصيدة يقول الشَّـاعر هذا البيت:

متّـم فألحدناكم في ذا الثّرى

هـل إن قضينا نوهب الحفرات؟!

فانظـر إلى البيـت الأخـير كـم مـن معنـى فيـه مـن معـاني الخشـية عـلى

مستقبل الوطن وتسربه إلى أيدي الدّخلاء، فهو يخشى أن يأتي يوم لا يجد فيه العربيّ في فلسطين أشبارًا يثوي فيه تحت أطباق الأرض كمدفن له، إذن فالشَّاعر كان في هذه الفترة التي سبقت الثَّورة العربيَّة الفلسطينيَّة الكبرى دائم التَّخوُّف من مستقبل قاتم السَّواد إن لم تتحفَّز الهمم إلى العمل الوطنيّ المليء بالتَّضحية، دائم الإيقاظ لنفس العربيّ الفلسطينيّ. هذه أمثال على إنتاج شاعرنا محمد حسن قبل عهد الثَّورة، فهو إنتاج موجّه للوطن شطر ذروة الثَّورة المنشودة، وإذ تأتي تلك الثَّورة الحمراء ينقلب الأسى فخرا والشّؤم تفاؤلًا، ويتحوّل الحفز النّقاد إلى مباركة لأعمال الوطن، وحثّ على المثابرة والمضيّ، ومثال على إنتاج الشَّاعر في هذه الفترة قصيدته (وقفة على ضفاف الأردن) وهي من وحي عام ألف وتسعمائة وستة وثلاثين ويفتتحها الشَّاعر بهذه الأبيات:

وقفت على الأردن وقفة من سرى

إلى خلّه من بعد نأي تجبرا

جرى دمعه عند اللقاء وطالما

جرى الدّمع فياضا لدى القرب أنهرا

دموع النّوى كم ذا يخبئها الأسى

ليوم يعود الشمل فيه مؤصرا

وإن بدمع القرب معنى يخاله

أخو اللب لحنا أو شعاعا مبعثرا

وقفت وما في النهر همس لنابس

سوى خرّة يعلو بها متكسّرا

يوقعها والليل مرخ سدوله

كأن به شجوا كشجوى مؤثرا

وإن خرير النهر شجو موقع

وفن به لحن السّماء تحدرا

حظيت بمن يا نهر، يصفى وداده

ومن لا ينى يهدى خليلا محيرا

وهي أبيات يناجي فيها طبيعة الأردن نهر فلسطين وشرق الأردن الخالد بمياهه المتحدّرة المنسابة بين الجبال والمروج، ثمّ ينتقل الشَّاعر إلى الإشادة بشعبه بقبيلة المتوثّب العامل، لقد مضى عهد الاستسلام

ومـضى عهـد التّشـاؤم، وأتى عهـد كـسر القيـود وأتى معـه عهـد الفخـر، فيقـول الشَّـاعر:

هنا الشّـعب وثاب هنا الشَّعب ثائر

يـروم حياة أو ممات مظفرا

وهـل كان ظفر الموت إلا بنبله

يعيـش صفي النبل في الموت أدهرا

أيـا نهر، ما للشرق غاف وخله

يقـدّم أرواحا ويحتقر الكرى

ومـا هـذا الغـرب سـوى غـرب الأردن؛ أي فلسـطين العربيَّـة، ومـا ذاك الـشَّرق إلَّا شرق الأردن، ويشـيد الشَّـاعر في هـذه الوقفـة بالضَّمـير الوطنـيّ الواعـي مفتخـرًا معتـزًّا قائـلًا:

سـلامٌ على الإخلاص يحفز وادعا

فيتركـه روحا ونبضا ومفخرا

سـلام على نبع الضَّمير إذا انبرى

يحيـل بواد النّفس ربعا منورا

هـو الألم الزخار نار لهيبها

يبـثّ على الأرواح نورا مطهرا

ويجعلها شـفّافة في سموها

يـكاد يرى فيها الصّفاء مصورا

وهنـاك وقفـة أخـرى مـن وقفـات الشَّـاعر عـلى ضفـاف الأردن، سـيراها قـراء العربيـة في ديـوان (نـور مـن الـشرق) وهـي مـن وحـي ذاك العـام، والقصيدتـان نُشِرَتـا في العـام نفسـه، والثَّـورة قائمـة، والإضراب شـامل في جريـدة اللِّـواء وفي بـاب الشِّـعر القوميّ بتلـك الجريـدة، ويشـيد الشَّـاعر أيضًـا بعـد هاتـين الوقفتـين بثـورة بـلاده وحـماه فيقـول في قصيـدة فجـر الحريَّـة:

أرسل شعاعك واغمر الأرواحا

وانفح سرائرها هدى وسراحا

ثـمَّ ينتقـل إلى جـوّ مـن الحريَّـة الكـبرى؛ حريَّـة النّفـس كأنَّـه يريـد أن يسـير بشـعبه إلى آفـاق جديـدة مـن حريَّـة ترتكـز عـلى أسـاس إنسـاني؛ أي إنَّـه يريـد أن يتكنّـه حـماة فلسـطين معنـى الحريَّـة عـلى وجهـه الحـق مبتدئًـا بهـذا البيـت:

تلك السَّرائر كم ضوت مسـجونة

القيـد يطمس وقدها اللماحا

ثمّ يقول:

تلـك السَّرائر وهي أثمن ما حوى

هذا الوجود أبت سـواك مراحا

إلى أن يقول:

تلـك السرائر كم أتت من معجز

لـو أنّ فجرًا للتحرُّر لاحا

فجـر التّحرُّر طال ليل دامس

أو مـا تطلّ مبددا أتراحا

وفي النّهايـة ينتقـل الشـاعر مـن الحريَّـة الإنسـانيَّة الشَّـاملة القائمـة عليهـا، حريـة حـماة القوميَّـة، إلى حريَّـة التخلـص والتفـكُّك مـن التَّدخُّـل الأجنبـيّ والإشـادة بعمـل مواطنـي فلسـطين القومـي لإنقـاذ بلادهـم، فيقـول:

وإذا طلعـت فربما وافيتنا

فـوق الجبال نؤججن كفاحا

أو في السّـهول نضيئها بقلوبنا

ونحيـل موحش ربعها وضاحا

مـا القصر قصر إن تلفع بالخنى

إنَّ الفلا إذ ذاك أكرم سـاحا

والحـق إنَّ الشـاعر محمـد حسـن في هـذه القصيـدة وفي غيرهـا مـن القصائـد الوطنيَّـة التـي سـبقت عهـد الثَّـورة، وزاملـت الثَّـورة، كان الشَّـاعر الحافـز طـورًا، المبـارك في طـور آخـر، المتشـوِّف إلى آفـاق جديـدة مـن معـاني الحريَّـة الكـبرى، حريَّـة الانعتـاق التـي لا نهايـة لهـا، وهـو مـع هـذه العنـاصر الثَّلاثـة لا يباريـه في فلسـطين شـاعر آخـر مـن شـعراء الثَّـورة، ذلـك أنَّ الشَّـاعر إبراهيـم طوقـان قـد حفـز وطنـه وحـماة فلسـطين العربيَّـة إلى آفـاق مـن الإبـاء الوطنـيّ والمنعـة القوميَّـة مزامـلًا في ذلـك الشَّـاعر محمـد حسـن، وحـضّ إبراهيـم عـلى الثّـورة، وإن لم يكـن ذلـك بالصَّراحـة التـي نراهـا في شـعر محمـد حسـن، لكنَّـه عمـل في ذلـك عملًا أدبيًّـا يذكـر ويـؤرَّخ، كـما أنَّ عمـل محمـد حسـن الأدبيّ في ذاك الصَّـدد يُذكَـر ويـؤرَّخ، ولـن ينـسى مـؤرِّخ لـلأدب العـربيّ في فلسـطين قصيـدة للشَّـاعر إبراهيـم عنوانهـا (السَّـاعات الثّلاث) وهـي رثـاء لشـهداء ثلاثـة مـن شـهداء فلسـطين في اضطراباتهـا الكثـيرة التـي سـبقت عهـد الثَّـورة الكـبرى.

وإذ يـأتي عهـد الثَّـورة نـرى إبراهيـم مقـلًّا في إنتاجـه كأنَّـه لا يسـتطيع أن يـؤرخ العواصـف الطّروبـة في النفـس الوطنيـة، ونـرى في الوقـت ذاته شـاعرنا محمـد حسـن يتمِّـم المرحلـة، ويتمِّـم المراحـل الوطنيَّـة بإشـادته الطّروبـة في جـو فلسـطين الوطنـيّ الثَّـاني بألحـان تتحـدَّر مـن أعمـق أحاسـيس الطَّـرب القومـيّ والفخـر القومـيّ، وإلَّا فقـل لي بربـك مـن فخـر كمحمـد حسـن في

قصيدتـه «فجـر الحريـة» عندمـا قـال مخاطبـا ذلـك الفجـر:

وإذا طلعـت فربما وافيتنا

فـوق الجبال نؤججن كفاحا

أو في السـهول نضيئها بقلوبنا

ونحيـل موحش ربعها وضاحا

مـا القصر قصر إن تلفع بالخنى

إن الفلا إذ ذاك أكرم سـاحا

ففـي هـذه الأبيـات الثـلاث تهكّـم كمـين بـيِّن بأعـداء الوطـن الذيـن يتربَّصون بـه في الدَّوائـر مـن وراء السِّـتار، متذمّريـن مـن تيقُّـظ هـذا الوطـن؛ راجـين أن يعـود إلى وضعـه الأوَّل وضـع الاستسـلام والانقيـاد.

وللأسـتاذ الشَّـاعر كتيّـب صغـير بعنـوان «فـن جديـد» يبحـث في فلسـفة العطـر، وديـوان «قصائـد الوحـدة العربيـة» الـذي أصـدره نـادي الإخـاء العـربيّ في أحلـك ظـروف الطباعـة التـي مـرَّت بفلسـطين عـام ١٩٤٤، ولـه أيضًـا المسرحيَّـة الشِّـعريَّة «امـرؤ القيـس بـن حجـر» وهـي مسرحيَّـة كـبرى، يحـق لنـا أن نتباهـى بهـا ونتحـدَّى شـعراء العـالم العـربيّ في تسلسـل الرِّوايـة وتجديـد المعـاني والألفـاظ العربيَّـة المتينـة.

إبراهيـم عبد الفتَّاح طوقان

ونحـن نقـف عنـد تـذكار شـاعر آخـر قـدَّم مـن قبسـه هـو الآخـر نـورا في نهضـة هـذا الـثّرى الأدبيَّـة، ذاك هـو المرحـوم الشَّـاعر إبراهيـم طوقـان. وبينـما كان محمـد حسـن وراء أرغنـه يتذمـر مـن الوضـع الاجتماعـي مـرة ويشـيد أخـرى، نـرى الشـاعر إبراهيـم طوقـان يتذمـر هـو بـدوره أيضـا في مـرة مـن المـرات ويشـيد أخـرى، وإن كان أسـلوبه الاجتماعـي في التذمـر والإشـادة يختلـف عـن الشـاعر الأول ذاك أن ابراهيـم لا يتلفـت كثـيرا، فهـو عندمـا يـسيء الظـن لا مجـال لمحـو فكرتـه بصـدد تيـك الإسـاءة إلا بكـد الأنفـس وهـو كذلـك في إحسـان الظـن. أمـا الشـاعر الأول فهـو يتلفـت كثـيرا تلفتـات رزينـة يمحـو بهـا كثـيرا مـما التقـط في ذهنـه سـابقا وثبـت مـن الجديـد مـا يسـتحق الإثبـات ومـن صيحـات إبراهيـم المليئـة بالحـق صيحتـه الشـعرية ناعيـا عـلى نـوع مـن الزعامـة فيقـول:

وطن يباع ويشترى

وتصيح فليحيا الوطن

هـذه وقفـة لا بـد منهـا عنـد شـاعر السـاعات الثـلاث التـي رثى فيهـا أبطـالا ثلاثـة مـن ثـوار هـذا الوطـن عندمـا كان هـذا الوطـن يحلـم بالثـورة ولا يحققـه، ومـن هـؤلاء الأبطـال الثلاثـة فـؤاد حجـازي الشـاب الـذي كـرس حياتـه وقدمهـا قربانـا لحيـاة الوطـن الخالـدة.

وفي الثلاثـاء الحمـراء أسى مريـر وشـجي أليـم تـبرز في كل شـطرة وقافيـة منهـا عواطـف الشـاعر الكئيبـة المصطبغـة بأحـزان البشريـة، حيـث يسـتهل موشـحه بهـذا اللـون الزيتـي الخالـد، مسـتعرضا أروع اسـتعراض مـآسي الانسـانية في دمائهـا ودموعهـا بقولـه

لمّـا تَعَرَّضَ نَجْمُك المنحوسُ

وترنَّحـت بِعُرى الحِبالِ رؤوسُ

ناح الأُذانُ وأعولَ الناقوسُ

فالليـل أكدرُ والنَّهارُ عَبوسُ

طَفِقَتْ تثورُ عواصفُ

وعواطفُ

والموت حينا طائف

أو خاطفُ

والمعْـولُ الأَبديّ يُمْعِن في الثرى

لِيردَّهـمْ في قلبِها المتحجِّرِ

إلى أن يقول:

وإذا بيومٍ راسفٍ بقيودِهِ

فأجابَ والتاريخُ بعضُ شـهودهِ

أُنظرْ إلى بيضِ الرَّقيقِ وسـودِهِ

مَنْ شـاءَ كانوا مُلكَهُ بنقودِهِ

بشرٌ يُباعُ ويُشترى

فتحرَّرا

ومشى الزَّمانُ القهقرى

فيما أرى

فسـمعتُ منْ منعَ الرَّقيقَ وبَيْعهُ

نادى على الأَحرارِ يا مَنْ يشـتري

وإذا بيـومٍ حالكِ الجِلْبابِ

مُتَرنّحٍ من نَشْوةِ الأوصْابِ

فأجـابَ كلاّ دون ما بكَ ما بي

أنا في رُبى عاليه ضاع شـبابي

وشهدتُ للسفَّاح ما

أبكى دما

ويل له ما أظلما

لكنما

لم ألْـقَ مِثْلَكَ طالعاً في روعةٍ

فاذهـبْ لعلَّكَ أنتَ يَومُ المحشرِ

وفيهـا كـما يستشـف القـارئ صـورًا مـن العسـف والحيـف والجـور تشـهد بخطـورة أيـام الثـورة الدَّاميـة وشـدّتها المروّعـة وظلمهـا الصَّـارخ، ويمـضي في وصفـه:

ضـاق البريدُ وما تغيَّرَ حالُ

والذّلّ بين سطورِنا أشكالُ

خُسْرانُنا الأَرواح والأموالُ

وكرامةٌ يا حسرتا أسمالُ

أوَتُبصرونَ وتسألونْ

ماذا يكونْ

إنَّ الخداعَ له فنونْ

مثْلَ الجنونْ

هيهـات فالنفس الذليلة لو غدت

مخلوقـةً من أعينٍ لم تُبْصرِ

أَنى لشـاكٍ صوتُه أنْ يُسُمَعا

أَنَّى لبـاكٍ دمعهُ أنْ يَنفعا

صخـرٌ أحسَّ رجاءَنا فتصدَّعا

وأتى الرجـاءُ قلوبَهم فتقطَّعا

لا تعجبـوا فمن الصخورْ

نبعٌ يفورْ

ولهم قلوبٌ كالقبورْ

بلا شعورْ

لا تلتمـسْ يوماً رجاءً عندَ مَنْ

جرَّبْتَهُ فوجدتَهُ لم يَشْـعُرِ

هـذه هـي الثلاثـاء الحمـراء، فـما إن يمـرّ عـام أو بعـض عـام عـلى نـوى أولئـك الأبطـال العـرب الأقحـاح مـن أبنـاء ثـرى فلسـطين، نواهـم عـن حماهـم الـذي فـدوه بأعـمال هـي ذروة في التَّضحيـة والـذّود عـن القوميَّـة

والعروبة، ما إن يمرّ على ذكراهم أمد من الزَّمن حتَّى تتفجَّع الأمَّة في صمت رهيب. فقد سقط أولئك الأبطال في حومة الشَّرف إلى جانب من سقط، وجاء شاعرنا إبراهيم طوقان ليخلدهم في هذه الدَّمعة التي ذرفها عند أطلال العام الجديد على ربع فقد حفنة كريمة من أبطاله العاملين.

وقصيدة المرحوم إبراهيم طوقان في التَّفاؤل والتَّشاؤم لون جديد زاخر بالتَّهكُّم والسُّخرية، مليء بالمرارة والألم جامع بالأحاسيس والعواطف يرسمها هذا الفنَّان وهي تتدافع من نفسه وقلبه وروحه منصبَّة على أدعياء الوطنيَّة والرِّجال الخاملين والحيارى المضلّلين ممَّن ختم الله على قلوبهم وأبصارهم، وماتوا وهم أحياء يرزقون، تنصبّ عليهم انصباب الشلّالات المنهمرة حين يقول:

أَفنَيْتَ يا مسكينُ عُمرَكَ

بالتَّأوُّهِ والحزَنْ

وقعدتَ مكتوفَ اليديْن

تقولُ حاربني الزَّمنْ

ما لَمْ تقمْ بالعبءِ أنتَ

فَمَنْ يقوم به إذن

ويمضي الشَّـاعر في أهكومة لاذعة سـاخرة يتطرَّق فيها إلى الجدل والنِّقاش:

كم قلتَ أمراض البلاد

وأنتَ من أمراضها

والشؤم علتها فهل

فتشت عن أعراضها

يـا مَنْ حملْتتَ الفأْسَ

تهدِمها على أنْقاضِها

أُقعدْ فما أنتَ الذي

يَسْعى إلى إنهاضها

وانظرْ بعينيْك الذئاب

تعُبُّ في أحواضها

وطنٌ يُباعُ ويُشترى

وتصيحُ فليحيَ الوطنْ

لو كنتَ تبغي خيْرَهُ

لبذلـتَ من دمِك الثمنْ

ولقمتَ تضْمِدُ جرحهُ

لـو كنتَ من أهلِ الفطنْ

إلى أن يقـول محذرًا ناصحًا:

لكِنْ تَوَهَّمْتَ السَّقام

فأسقمَ الوهْمُ البدنْ

وظننْتَ أنَّكَ قَدْ وَهَنت

فَدَبَّ في العظم الوهنْ

والمرء يرهبه الرّدى

مـا دامَ ينظرُ للكفن

وينقلب التَّشـاؤم تفاؤلًا حين يلتفت إلى الشّـباب:

حيَّ الشبابَ وقُلْ سلاما

إنَّكُمْ أَملُ الغَدِ

صَحَّتْ عزائمكُمْ على

دفعِ الأَثيمِ المعْتدي

واللهُ مَدَّ لكُمْ يدا

تَعْلو على أقوى يدِ

وطني أزُفُّ لكَ الشَّباب

كأَنهُ الزَّهَرُ النَّدي

لا بُـدَّ مِن ثَمرٍ لهُ

يُوْماً وإنْ لمْ يَعْقِدِ

إلى آخـر هـذه الأبيـات التـي شـاعت في الأوسـاط الأدبيـة وأصبحـت مـضرب الأمثـال. هـذا ولم يـأل إبراهيـم في التَّغنّـي بحـماه، والإشـادة بأبنـاء ذاك الحمـى وشـمائلهم بأناشـيده الوطنيَّـة التـي كان يضعهـا في مناسـبة وبـدون مناسـبة. وقطعـة موطنـي تنبـض بالحيـاة والشُّـعور الفيّـاض حيـث يسـتهلّها بالأبيـات الأربـع الأولى:

الجَلالُ وَالجَمالُ

السَناءُ وَالبَهاءُ في رُباك

وَالحَياةُ وَالنَجاةُ

وَالهَناءُ وَالرَجاءُ في هَواك

هَل أَراك

سالماً منعّماً

وَغانِماً مكرّماً

هَل أَراك

في عُلاك

تبلغ السماك

هـذا وإنَّ لصاحـب حديقـة العشَّـاق مواقـف وطنيَّـة مشرِّفـة، قمـين بنـشء العروبـة أن يأخـذ عنهـا المثـل السَّـامية في التَّضحيـة والـذَّود عـن الوطـن، وأن يقـدّس مبـدأ الشَّـاعر في قولـه:

إن قلبي لبلادي

لا لحزبٍ أو زعيمِ

غايتي خدمةُ قومي

بشقائي أو نعيمي

فالوطــن في عــرف هــذا الفنَّــان نغمــة تكفــي لأن يقــع رشّــاش شــلاله القيثـاريّ عـلى أذنـه ليتدفَّـق مـن نفسـه مـن خافقـة مـن ضمـيره، مـن أعمـق الأعـماق في أقـداس خيالاتـه تراتيـل مـن التشـوّق والتشـوُّف والألم المـبرّح والتَّفكـير السَّـاهم.

والوطـن كلمـة لهـا في أذنـه أبعـاد وأبعـاد في أجـواء وأجـواء، موسـيقى الحمـى البائـس القـويّ رغـم بؤسـه، الحمـى المتحفِّـز، الحمـى الحافـل بطبيعـة هـي مـن سـحر الطَّبيعـة، وبسـحر هـو مـن طبيعـة السـحر.

كـم ناجـى أبنـاء الحمـى للـذَّود عـن حيـاض الوطـن بنبـذ الزَّعامـة والاقتتـال عليهـا، وكـم طالبهـم بجمـع للشـمل والالتئـام، وكـم تشـكَّك وتـردَّد في إيجـاد العـلاج النَّاجـع لـداء الحزبيَّـة المقيتـة فيقـول:

وَطَنـي أَخاف عَلَيك قَوماً أَصبَحوا

يَتَسـاءلون مَن الزَعيم الأَليقُ

لا تَفتَحوا بابَ الشـقاق فَإِنَّهُ

باب عَلى سـود العَواقب مُغلَقُ

وَاللَـه لا يُرجى الخَلاص وَأَمرَكُم

فَوضى وَشَـمل العاملين ممزقُ

و»الشَّـهيد» قطعـة شـعريَّة ذات لـون خـاصّ تجيـش في نفـس الشَّـاعر الثَّائـر، كـما تجيـش في كلّ نفـس ثائـرة عاصفـة بالمـوت عصفهـا بالحيـاة؛ كلّ بيـت، بـل كل شـطرة منهـا تزخـر بـالأدب القـويّ النَّابـض، حيـث تتدفَّـق الأبيـات في نـبرة صادقـة ومتانـة سـامقة. والقصيـدة مـن الرِّثـاء الخالـص إلَّا أنَّهـا أبعـد مـا تكـون عـن النـدب والنحيـب، ففـي هذيـن البيتـين تبـدو طريقـة إبراهيـم واضحـة جليَّـة.

لا تقل ابن جسمِه

واسمُه في فمِ الزَّمَن

إنَّه كوكبُ الهدى

لاحَ في غيهبِ المِحَن

وكانَ المرحـوم كثـير التَّأمُّـل دائـم التَّفكـير في مصـير هـذا الوطـن مـن عبـث العابثـين، فيرسـم لنـا مـا يسـاوره ومـا سـيحدق بقومـه وحـماه مـن مـآسٍ وشرور نتيجـة بيـع الأراضي وتسربهـا إلى أيـدي الدّخـلاء، ويشـير إلى البائـع مخاطبًـا إيَّـاه أن احـذر عواقبـك الوخيمـة وعـدم احتفالـك بالنَّتائـج، وجنايتـك عـلى الأحفـاد، واغـترارك بالأصفـر الرنَّـان، مسـديًا لـه النّصـح كيـما يـترك لقـبره مكانـا يثـوي إليـه إذا مـا مـات. أجـل، إلى هـذا المنحـى يتَّجـه الشَّـاعر عنـد مخاطبتـه بائـع الأرض فهـو يقـول:

يـا بائعَ الأرضِ لم تحفِلْ بعاقبةٍ

ولا تعلَّمـتَ أنَّ الخصم خدّاعُ

لقـد جنيتَ على الأحفادِ وا لهفي

وهم عبيدٌ وخُدَّامٌ وأتباعُ

وغرك الذهبُ اللماعُ تُحْرزُهُ

إن الـسَّرابَ كما تدريه لمَّاعُ

فكِّرْ بموتكَ في أرضٍ نشـأتَ بها

واتـركْ لقبركَ أرضا طولها باعُ

مـا أشـدّ خوفـه عـلى وطنـه، ومـا أشـدّ حرصـه عـلى مراقبـة رجالاتـه وأقطابـه، ومـا أقـوى حملتـه عـلى زعـماء البـلاد العابثـين، وهـزءه الـلّاذع السَّـالق. ففـي كل قطعـة صـورة حيَّـة نابضـة بـروح شـاعرنا التهكُّميَّـة، أليـس هـو القائـل:

أنتم المخلصون للوطنيَّةْ

أنتـمُ الحاملون عبءَ القضيَّةْ

أنتـم العاملون من غير قولٍ

بـاركَ اللهُ في الزنود القويَّةْ

وبيانٌ منكم يعادل جيشـا

بمعدَّات زحفه الحربيَّةْ

واجتـماعٌ منكم يَرُدُّ علينا

غابـرَ المجدِ من فتوح أُميَّهْ

وخـلاصُ البلادِ صار على الباب

وجاءت أعيادُه الورديَّة

مـا جَحَدنا أفضالكم غير أنَّا

لم تزل في نفوسـنا أُمنيَّةْ

في يدينـا بقيَّةٌ من بلادٍ

فاسـتريحوا كيلا تطير البقيَّةْ

وهـل هنـاك مـن يجهـل بعـد وقفـات الشَّـاعر النّقَّـادة، ألم يعـترف بعبقريتـه الشـعرية أدبـاء الأقطـار الشَّـقيقة؟ ألم تشـهد لـه مواقفـه اللَّامعـة هـذا الحـماس وذاك الإخـلاص؟ أجـل إنَّ فلسـطين العربيَّـة لم تألـف شـاعرًا كإبراهيـم في تهكمـه وسـخريته، فهـو بحـق شـاعر السُّـخرية الأول، وشـاعر التَّهكُّـم الجـريء، وإن لغـط اللاغطـون مـن حسَّـاده وأعدائـه.

ولنعـد إلى جـوّ آخـر مـن أجـواء هـذا الشَّـاعر قبـل أن ننتقـل إلى غـيره، فقـد سـطت عـلى حياتـه جـزر مـن سـعادة الحيـاة، ومـن مـن مـآسي القـدر، وعانـت هـذه النفـس اليعربيـة الأبيَّـة ألـوان الكآبـة والألم، فصمـدت وصاولـت أمـام إغـراء الطَّاغـوت، وإذ بأولئـك الذيـن يفنـي ذرات مشـاعره بإيقاظهـم وانتشـالهم مـن مهـاوي الطَّاغـوت، وإنقاذهـم مـن حبائـل الافتييـات الغاشـم، إذا بهـم يتحاربـون ويتقاتلـون، فينهـد إلى تنبيههـم بالخطـر المحـدق؛ خطـر الصّهيونيَّـة قائـلًا:

ما لكم بعضُـكم يُمزّق بعضا

أفرغتـم من العدو اللدودِ؟

اذهبـوا في البلاد طولاً وعرضا

وانظـروا ما لخصمكم من جهود

كلُّ هذا اسـتفاده بين فوضى

وشقاقٍ، وذلّة، وهُجود

وكان لذكـرى وعـد بلفـور المشـؤوم أثـر لا يُمحـى مـن صـدر إبراهيـم، كـما كان أثـره في هـذا الجـزء مـن الوطـن العـربي كبـيرًا في تغيـير الأوضـاع الاجتماعيَّـة والسِّياسـيَّة والثَّقافيَّـة، فيقـول فيـما يقـول:

يهاجـر ألفٌ ثم ألفٌ مهرباً

ويدخل ألفٌ سـائحاً غير آيبِ

وألف جوازٍ ثم ألف وسـيلةٍ

لتسـهيل ما يلقونه من مصاعبِ

وفي البحـر آلافٌ كأنَّ عبابَه

وأمواَجه مشـحونةٌ في المراكبِ

بنـي وطني هل يقظةٌ بعد رقدةٍ

وهل من شـعاعٍ بين تلك الغياهبِ

ونقطة قمينة بالتَّقرير إنصافًا للحقّ والأمانة، وهو ما نأخذه على المرحوم، فقد كان طائفيًّا، وما أخلق به لو تجرَّد من طائفيَّته وتنكب سبيل الإسفاف في الألفاظ، وطريق التّهجُّم، ومثل على ذلك قصيدته «البجامات». ويجدر بنا أن نقف عند هذا الحدّ؛ لأنَّ ديوان الشَّاعر الفقيد لم يُطبَع بعد، ولئن استعرضت جهاد إبراهيم طوقان المجيد هذا الاستعراض الخاطف السَّريع، فلأنَّنا نأمل من أبي سلمى وزملاء الفقيد أن يدأبوا على بعث هذا التُّراث القوميّ بعثًا يجدر بمؤرخي الأدب أن ينصفوه ويخلِّدوه.

ولا يسعنا في هذا المقام قبل أن ننتقل إلى شاعر آخر، لا يسعنا إلَّا أن نشكر خنساء فلسطين، الشَّاعرة فدوى عبد الفتاح طوقان، شقيقة المرحوم الشَّاعر إبراهيم طوقان، على إصدارها ترجمة حياة أخيها، بعد أن عجز زملاء المرحوم وأدباء هذا القطر عن وضع مثل هذا الكتاب.

أبو سلمى

هـو عبـد الكريـم الكرمـي، الشَّـاعر الـذي طبقـت شـهرته أفاويـق الأقطـار العربيـة الشـقيقة منـذ أمـد ليـس بالقريـب، ولم يبلـغ الشَّـاعر مـن الشّـهرة والمكانـة إلى مـا بلـغ عـن طريـق عبقريتـه الشّـعريَّة، أو مكانتـه الأبديَّـة، بقـدر مـا بلغـه عـن طريـق تعلُّقـه برسـالته الاشـتراكية الخالصـة وثورتـه عـلى أربـاب المـال والجـاه والسـلطان.

مهـما يكـن مـن أمـر هـذا الشَّـاعر، فإنَّنـا لا نـرى لـه مـن شـعر الثَّـورة سـوى قصيدتـه الدَّاليـة التـي تُعتَـبَر بحـقّ مـن أروع القصائـد الثّوريـة، وإن كنّـا لا نذهـب معـه في النَّيـل مـن كرامـة ملـوك العـرب، والتَّنقُّـص مـن شـأنهم بالـذمّ والسُّـباب، ومهـما يكـن ففـي الأبيـات التـي سـنوردها دليـل سـاطع عـلى حيويَّـة هـذه النَّفـس الجيَّاشـة بالشُّـعور الوطنـيّ الفيَّـاض.

وقـد وضعهـا الشَّـاعر لـدى مـصرع الشَّـيخ الوقـور فرحـان السَّـعدي، عندمـا قضـت السِّياسـة الاسـتعماريَّة بإعدامـه رغـم تجـاوزه سـنّ السَّـبعين مـن العمـر.

ولا يسعنا هنا إلا الاعتراف بشاعريَّة أبي سلمى وأن نقف إكبارًا وإجلالًا لهذا الاستهلال المليء بالحقّ الصَّارخ:

انشر على لهبِ القصيدِ

شكوى العبيدِ إلى العبيدِ

شكوى يردِّدُها الزَّمانُ

غدًا إلى الأبدِ الأبيدِ

ويمضي في رسالته الخطابيَّةِ في ذمِّ الاستعمارِ وأذنابِه أمثال عبد الله فلبي الإنجليزي المسلم، والجنرال مود ومن لفَّهما من سماسرة الغرب، كما يذمّ ملوك العرب الواحد بعد الآخر لمواقفهم الجامدة، كل هذا في وصف شائق رائع من النَّاحية الفنيَّة.

وقمين بنا أن نلمح في معرض الإبانة والبحث عن تنكبه سبيل الهجاء اللَّاسع والسُّخرية اللَّاذعة عندما يعرج أبو سلمى على العراق في هذه القصيدة المشهورة، فلسنا ندري لماذا يتعلَّق شعراء هذا الثّرى وأدباؤه بالعراق وأبناء العراق إلى هذا الحد، ولكن الذي ندريه هو أنّ الدَّافع الأساسيّ إلى هذا التَّعلُّق والإشادة بمفاخره، حماسة أبناء الرّافدين في تأزير قضيَّة فلسطين، وتأييدها الذي يقف شعراؤنا وأدباؤنا حياله عاجزين عن تقديم فروض الامتنان والشُّكر الجزيل.

هذا بالرّغم من أنَّ الوشائج الأدبيَّة والرَّوابط الاجتماعيَّة تكاد تكون معدومة أو هي في حكم المعدومة، كما أنَّ التَّبادل الفكريّ قليل باهت،

ينمـو حينـا ويتقلَّـص أحيانـا، ولسـت أدري إلى أيّ مـدى تتـأصَّر العلاقـات الأدبيَّـة والاجتماعيَّـة والسِّياسـيَّة إذا تحقَّقـت رغبـة العاملـين لتمتـين التَّبـادل الثَّقـافيّ بـين البلديـن أو تكتيلهـما، ولكـن الـذي أجـزم فيـه وأقطـع بـه، هـو أنَّ أبنـاء فِلَسـطين العربيَّـة يقدِّسـون جهـاد الفراتـين ويمجِّـدون تراثـه الخالـد، سـواء أكان ذلـك في ماضيـه الغابـر أو حـاضر المتوفّـز، وأقـول جازمًـا إنَّ حبَّهـم وتعلُّقهـم بالعـراق؛ أبنائـه وبناتِـه، يفـوق حبَّـه أيّ قطـر آخـر، ذلـك أنَّ العـراق يبـذل مـن التَّضحيـة الماديَّـة والمعنويَّـة في سـبيل نـصرة فِلَسـطين أكـثر مـن أيّ قطـر عـربيّ.

ولسـت هنـا بصـدد التَّعليـق عـن هـذا الموضـوع في هـذا الآن، وليـس هـذا مـا كان لسـبر غـور الموضوعـات الشَّـبيعة بهـذه، والتـي تمـسّ أوضاعنـا السِّياسـيَّة مسًّـا مبـاشرًا، كـما لا أرغـب في إثارتـه عـلى هـذا الوجـه، ولكنّـي ملـزم بالتَّلميـح عنـه عـلى الأقـلّ للتَّدليـل عـن نفسـيَّات شـعرائنا الكبـار.

وفي مستهلّ تهجُّمه العنيف يوجِّه خطابه الشَّديد اللّهجة إلى ملوك العرب كما أبنت في السُّطور القريبة لافتًا انتباهَهم إلى ما يدور بين ربوع هذا الثرى وجنباته في أبياته الرّنَّانة وكلماته النَّاريَّة، فيقول:

إيه ملوك العرب

لا كنتم ملوكًا في الوجود

وفيها يقول:

قوموا اسمعوا من كلِّ

ناحيةٍ يصيحُ دمُ الشَّهيدِ

قوموا انظروا (فرحانَ)

فوقَ جبيِه أثرُ السُّجودِ

يمشي إلى حبلِ الشَّهادةِ

صائمًا مشيَ الأسودِ

سبعونَ عامًا في سبيلِ

اللهِ والحقِّ التَّليدِ

خجل الشَّباب من المشيبِ

بل السّنون من العقودِ

قوموا انظروا الأهلينَ بينَ

الوعدِ ضاعوا والوعيدِ

فانظـر إلى هـذا التَّحريـضِ البليـغ، وهـذا الوصـف الـذي يفتِّـت الأكبـاد، ويبلـغ القمَّـة فيـه، عندمـا يلتفـت إلى الشُّـهداء والمسـاجين والأرامـل والأيتام، ويلفـت الأنظـار إليهـم:

ما بين ملقًى في السُّـجون

وبين منفيٍّ شريد

أو بين أرملةٍ تولولُ

أو يتيمٍ أو فقيد

أو بين مجهولٍ يرى

عصفَ المنونِ من النَّشـيد

قومـوا انظروا الوطنَ الذَّبيحَ

من الوريدِ إلى الوريدِ

تتزاحمُ الأجيالُ داميةً

الخطى حول اللّحودِ

ويسيرُ في هذا النّفس المتصاعد الجبار سيرًا يدفع بالنّفوس العربيَّة الثَّائرة إلى قلب الأوضاع السِّياسيَّة والاجتماعيَّة، وإنَّنا لنلمس في هذه المعلّقة روحًا تحرُّريَّة مخلصة، ونفسًا تقدُّميَّة صادقةً تثور على الملكيَّة وسلطانها، وما أتى به هذا السُّلطان من قيود وأغلال يكبل الشعوب العربيَّة النَّاهضة. وهو إذ يرسم لنا هذه اللَّوحات الفنيَّة بتشخيصه للحوادث الدَّامية واستعراضه استعراضًا حافلًا لما كان يجري ويدور في أجمل وصف، وأصدق عاطفة وأسلس عبارة نراه يناشد الشُّعوب العربيَّة، ويحرّضها على العمل فهم معقد الرّجاء ومبعث الأمل، وهم الذين يتحمّلون على عاتقهم تبعة تحقيق الأهداف كما يتحمَّلون وزر تقاعسهم وتخاذلهم إذا تهاونوا في بذل ما يتطلبه الوطن:

إيه شعوب العرب أنتم

مبعث الأمل الجديد

وأثر تبيانه هذا التّبيان يتَّجه الشَّاعر في دفاعه من حدود بلاده إلى الرّحاب العربيَّة المنكوبة ويتعرَّض لآلام الوطن العربيّ الكبير:

فلذ تقطّعها سياستهم

من القلب العميد

اسكندرونة نبتة حمراء

من زرع حصيد

سيروا على الترب المخضب

والثموا أثر الجدود

حريَّة الإنسان بالدم

تشترى لا بالوعود

أجـل حريَّـة الإنسـان بالـدم تشـترى لا بالوعـود، نـراه هنـا يرسـم لنـا سـبيل الوصــول إلى الحريَّــة المرموقــة حريَّــة فلســطين العربيَّــة يرســمها لنــا في شـجاعة وجـرأة نادرتـين، ويسترسـل دون مبـالاة واحتفـال بالحيـاة موجّهـا خطابـه إلى أبنـاء هـذا الـثّرى:

إيه فلسطين اقحمي

لجـج اللَّهيب ولا تحيدي

لا تصهر الأغلال غير

جهنّم الهول الشديد

حلفت دماءُ الثَّائرينَ

على العلوجِ بأن تسودي

والثَّورة الحمراء تطعمها

الجسومُ معَ الكبودِ

إيّان تسأل نارها

فتجيبنا هل من مزيد

يا نار لا تتظلّمي

وتقبلي شرف الوقود

يا من يعزون الحمى

ثوروا على الظّلم المبيد

بل حرروه من الملوكِ

وحرّروه من العبيدِ

هذه هي ملحمة الملاحم أو خاتمة الملاحم كما أسرّ إليّ الأستاذ أبو سلمى، وصرَّح بأنَّه سيضعها في آخر كتابه الشّعريّ عن الثَّورة العربيَّة الفلسطينيَّة التي أشعلت فكرَه وروحَه وقلبَه حينًا من الدَّهر. وسيكون هذا الكتاب الشِّعريّ بمثابة تأريخ جهاد فلسطين العربيَّة منذ اليوم الذي استُشهِدَ فيه الشَّيخُ عزّ الدِّين القسَّام إلى نهاية الثَّورة، وهو لعمري عملٌ أدبيٌّ خليق بالدَّرس والتَّمحيص.

وأسرَّ لي أيضًا أنَّ لها مقدّمة من الأديب الكبير إبراهيم عبد القادر المازني، والقائد العربي فوزي القاوقجي.

وشاعر الهوى والأحلام إنساني النّزعة، اشتراكيّ المبدأ، وكيف لا يكون

الشَّـاعر إنسـانًا بأوسـع مـا في الكلمـة مـن معنـى، يتمـرَّد عـلى الظُّـروف السِّياسـيَّة القاهـرة أشـدّ التَّمـرُّد ويسـخط عليها أشـدّ السّـخط، إلَّا أنَّـه يمتـاز عـن الشُّـعراء الاشـتراكيِّينَ بنزعتـه التحريريَّـة، ومذهبـه التَّقدمـيّ، ونقمتـه عـلى الأثريـاء الجامديـن والمحافظـين الرّجعيـين، فهـو إذن شـاعر الشَّـعب الـكادح يصـوِّر آلامهـم وآمالهـم، وينـادي بتحطيـم الفـوارق الاجتماعيَّـة والنُّظـم الباليـة. وأبـو سـلمى قبـل هـذا وبعـده يهـدف إلى الشَّـعب في مخاطبتـه إيَّاهـم، فالشَّـعب في عرفـه هـو المرجـع الأوَّل والأخـير:

يا أيُّها الشَّـعبُ النَّبيلُ

أمنتَ من شرِّ العثار

أنت الذي تهدي السَّـبيل

من اليمينِ إلى اليسار

قرِّرْ مصيرَكَ أنتَ، لا

مـن يبصمونَ على القرار

ويفتتح هـذه القصيدة بالبيتين التاليين:

سيروا على وضحِ النَّهارِ

فالحقُّ من نورٍ ونار

تأبى البطولةُ أن ترى

أبناءَها خلفَ السِّتار

وكـما يهـدف شـاعر الحريَّـة إلى الشَّـعب، كذلـك يهـدف إلى أرض الوطـن، ولا تـكاد تفوتـه مناسـبة إلَّا ويتطـرَّق إلى آلام هـذا الـثَّرى وآمالـه، ففـي هـذه القطعـة يقـول:

درج المجـدُ على أرضِ الجهاد

فالثـمْ التُّربَ وقل هذي بلادي

ويتسلسـلُ في الإشـادة بمجد الوطن على هذا السَّبيل الرَّائع قائلًا:

وأغاني النَّصر سـارتْ في الدّنى

وأناشـيدُ الهوى في كلِّ واد

ومثـارُ النَّقعِ فوقَ المنحنى

وعلى السـفح انثنت خيل الطِّرادِ

وعلت راياتُنا منسوجةً

بيـدِ الأحرارِ أو بيض الأيادي

قـف على الذّروة وانظر هل ترى

موكـب التَّاريخ ميمون القيادِ

أم تـرى اليرموك في أدمعه

وترى حطّينَ من خلفِ السَّـوادِ

تلـك دنياوات أمجادٍ مضت

لم تعـد غير دموعٍ وحدادِ

وطني أنت بقايا أملي

خضّبته عبراتٌ من فؤادي

مـا الذي جرح جنبيك أجب

كيـد أبنائِكَ أو كيد الأعادي

خفقـت فيه قلوب حرَّةٌ

كيف لا أجعله الدّهر وسـادي

تربة حبّاتها شادية

قدّسـت تلك الحبيبات الشّوادي

لا تقـل هذا تراب جامد

إنَّمـا الأحياء في هذا الجمادِ

فاحفـظ الأجيال في هذا الثّرى

فالـدم الحر من القرب ينادي

ونحـن لم نعـثر عـلى قطعـة مـن وحـي الثّـورة عـلى كـثرة مـا نُـشِر، وإن كنَّـا نجـزم بأنَّـه شـاعر ثائـر سـواء أكانـت ثورتـه عـلى السِّياسـة الاسـتعماريَّة أو الأوضـاع الاجتماعيَّـة أو قيـود العـادات البائـدة والتَّقاليـد السَّـخيفة.

برهان الدِّين العبُّوشي

مـن شـعراء الثّـورة الفلسـطينية القوميـة ومـن خطبائهـا البارزيـن، في شـعره شـعلة مـن اللّهـب المصطخـب، وقبـس مـن العـراك النفـسي والجسـدي، كـما أنّ في شـطراته وألفاظـه هديـر المدافـع وزئـير الأسـود، وزلازل الأرض، ورواعـد السـماء، وفي أبياتـه تلمـس العـز والـذل والشـجاعة والجبـل والكرامـة والهـون، إلى جانـب الـدم والدّينـار والوطـن والدّيـن، إلى غـير هـذا وذاك مـن ألفـاظ شـاعر مجاهـد لا يعـرف السِّياسـة والدبلوماسـيَّة، أو يعـترف بهـما، ولا يؤمـن بالمعاهـدات والمفاوضـات، فهـو رجـل الحـرب وجنـديّ الوطـن، ولا غـرو في ذلـك، فهـو يعتقـد اعتقـادا جازمـا أن لا حـل لقضيـة البـلاد إلَّا عـن طريـق الثَّـورة، والثَّـورة لا غـير.

وبرهـان في ثورتـه الصَّاخبـة يتعلَّـق بـين الكآبـة والأمـل واليـأس والرَّجـاء والضِّعـة والزّهـو، فليـس هـو بالشَّـاعر المؤمـن بقـدرة الشَّـعب واضطلاعـه بمـا يُسـنَدُ إليـه مـن مهـام، ولا هـو بالشَّـاعر الكافـر بالحيـاة المتشـائم مـن رهطـه وعشـيرته، فكثـيرا مـا يقـع بـين الحـيرة والارتبـاك، ويتخبَّـط تخبّـط عشـواء، فمـن زهـوه بالمـاضي وفخـره بالمآثـر، إلى القلـق واليـأس والحـيرة فالإيمـان. وكـما يتغـيَّر وينقلـب بـين الفينـة والأخـرى، كذلـك يتحـوَّل ويتبـدَّل بـين بيـت وآخـر، ودليلنـا عـلى قلقـه هـذا أبياتـه التَّاليـة في قصيدتـه النّونيَّـة

التـي يسـتلهم فيهـا المجـد الأثيـل والعـزَّ الغابـر، مخاطبًـا بهـا صـلاح الدّيـن الأيُّـوبي:

غدًا سـنرفع رايات الفداء على

هـام الجبال فيا مرحى لحطين

قـم يا صلاح فقد حمّ القضاء بنا

قـم يا صلاح فلن نبقى على الهونِ

قـم يا صلاح فذا مسرى النَّبيِّ غدا

ملجـا الذِّئاب ومعدى كلّ مأفونِ

الخصـمُ جمع أموالا وأعتدةً

وجند الغيدِ في سـوحِ الميادينِ

ونحنُ قحطان أسـد العربِ قد جفلت

قلوبنـا ونزلنا حمأة الطّينِ

يا حسرتا لشـباب العربِ أسكرهم

صوت العنادلِ في روضِ البسـاتينِ

وللمدافعِ في أشـباله نغمٌ

ينـشي الجبان ويحيي كلّ محزونِ

يـا فتيةَ الجيلِ قد عزَّت أوائلكم

وخلدوا كلّ مأسـورٍ وميمونِ

ويمـضي في تقديـم النّصح مذكـرًا النـشء العـربيّ بواجبـات وفـروض، واجبـات الصُّمـود إزاء أمـواج الظّلـم وعواصـف الطّغيـان، وفـروض التكتُّـل وتوحيـد الشّـمل، وتأصيرهـا، مشـيرًا إلى أنَّ مـكان الشَّـعب في ذرى الجـوزاء فاقتحمـوا بطـون الفضـاء كـما يشـير إلى إخـوان لهـم في الجهـاد عـلى أتـمّ الاسـتعداد لمـؤازرة أبنـاء هـذا الرِّحـاب في نضالهـم الخالـد.

لكـم ببغدادَ إخوان تظاهركم

همو أسـود الوغى شمّ العرانينِ

مليكهـم درّة الدنيا بمفرقه

إن تندبوهـم أتوكم كالفراعينِ

فليحـذرن عدوّ الشَّرق وثبتَنا

فقـد أفقنا إن نمنا إلى حينِ

ولا تغرَوا بلين في سياسـته

لينُ السِّياسةِ من لينِ الثَّعابينِ

إن لم تـرووا تراب الأرضِ من دَمِكُم

ستخرجونَ بلا دنيا ولا دينِ

أجل إنَّ هذه الأبيات، والأخيرة على وجه التَّدقيق، تكشف لنا نفسية صاحبها على الوجه الذي كشفناه في السُّطور القريبة. فالشَّاعر يحلِّق في أجواء متموّجة بأسرار وأزهار وأشواك، ينتقل فيها من التّغنّي والإشادة بالماضي العريق والمجد التَّليد، إلى التَّحريض الصَّريح، ومن هذا التَّحريض إلى القلق والحَيْرَةِ واليأس، إلى إيمان وحضّ للمرة الثَّانية، إلى نصح وإرشاد، إلى:

إن لم تـرووا ترابَ الأرضِ من دمكم

ستخرجونَ بلا دنيا ولا دينِ

فشاعرنا يجمعُ أحاسيسَ الرَّجلِ المحاربِ في ألفاظِه ومعانيه وشطرات قصائده، في مخاوف ذاك الرّجلِ وشجاعته، إحجامه وإقدامه. وهو وإن استعمل الضَّرورات الشِّعريَّة والمجوزات شأن الشعراء الذين لا تواتيهم الكلمات والقوافي، فله مواقف متأجِّجة في هذا الحقل، وليست له قصيدة واحدة في حقول الفنون الشِّعريَّة الأخرى، كما أنَّ مؤيد إبراهيم ليس له باع في الشِّعر القوميّ، فكلّ منظوماته كانت عن الحبِّ والغرام.

وفي (الوطن المبيع) التي ألقاها في الاحتفال الوطنيّ، بناءً على طلبِ

لجنـةِ صنـدوق الأمَّـة العربيَّـة بحيفـا، في هـذه القطعـة ينهـج الشَّـاعر إلى تقديـس الـثّرى وتمجيـده، ويعجـب فيهـا أشـدّ العجـب ممّـن يبيعـون ذمارهـم المجبـول بالـدم القـاني، ويفـدي وطنـه بدمـه، وبمـا ملكـت يـده، ويحـث الشَّـعب عـلى بـذل المـال والمهـج، إلى أن يقـول:

قـد شرّدوا العربي عن أوطانه

قـد جرّدوا العربيّ من أثوابه

لا تعذلوا الشَّـعب الفتيّ فإنَّه

آوى الشَّريد فراعه بحرابه

لا تعذلوا الشَّـعب الفتيّ فإنَّهم

دسّـوا له سمًّا بحلو شرابه

وفيها يقول:

لهفـي على اللَّيث المهدّد غابه

مـا كان أجدر لو يموت بغابه

والحرّ يدفع عن حماه بسـيفه

فإذا تحطَّم سـيفُه فبنابِه

فلنمـشِ للموت الزُّؤامِ كما مشى

جيشُ النَّبيّ بشـيبِه وشبابِه

ويقولُ أيضًا:

والغـربُ تلميذٌ لنا فاعجب إذن

لمعلّمٍ قد سـيم من طلابِه

زعمـوا بأنَّ كتابه حلٌّ لنا

عجبًا وهل يشـقيك غير كتابه

حكمـوا الممالك بالكتاب فأزرق

أو أبيـض يغريك لمع سرابه

فـأزرق أو أبيـض مـن الأوصـاف التـي لا تنـوّن لكونهـما مـن أفعـل التَّفضيـل الدَّالَّـة عـلى لـون، ولكـن الـضَّرورة الشـعرية تجيـز لـه، ويسترسـل مختتـما هـذه القصيـدة الطويلـة بهـذا اللـون مـن التحضيـض الـذي لا إلبـاس فيـه:

لم تسـمع الدّنيا بمثل مصابنا

ومصاب هذا الشَّـعب من أنصابه

فـإذا تململ للخلاص رأيتهم

رفعوا سـيوف البطش فوق رقابه

بلـغ الأسى والحقد فينا مبلغا

قـد كاد يخرج عن حدود نصابه

فلعـلّ هذا الحقد يضرم نخوة

في جيلنـا ويهزّ من أعصابه

فيهـب كالمجنون يدفع غارة

تجتاحه في سـهله وشعابه

فيزلـزل الدّنيا بغضبته كما

قـد زلزل الرُّومان في قرضابه

والمجـد لا يُبنى بغير جماجم

والمجد تحميه سـيوف غضابه

إن كان الاسـتقلال يؤخذ عنوة

والمـوت فيه فنحن من أربابه

هـذه نزعـة برهـان كـما تتجـلَّى لنـا في أبـين صورهـا، ثـورة شـاعر وشـعب فلسـطين الأبيّ عـلى مبـدأ واحـد، ذاك هـو التَّضامـن الوطنـيّ، حيـث يرمـي الشَّـاعر بنظرتـه فـيرى شـعبه مناضـلًا بحقِّـه في الحيـاة أمـام الشَّـمس. ويتطـرَّق شـاعر الثَّـورة حتَّـى في رثائـه لإبراهيـم طوقـان عـن الحمـى البائـس وأبنـاء ذاك الحمـى:

ومن كان سمسـارا على عرض قومه

تهـادى عن الأحرار في غيهب الجب

ومـن عجب أنّا كثار شرارنا

وأكثرهم شرا سماسرة الغرب

ولكن لي فألا بعزم شـبابنا

إذا شـمروا سافا وشدّوا إلى الحرب

وفي الأرض نـاس لا يراعون ذمَّة

فقد مسـخوا الأديان بالزّور والكذب

وقـد زعموا أنَّ القضيَّة عقدت

همو عقدوها فاسـألوا ذنب الضبِّ

وقد قسـموا الدّنيا فكان نصيبنا

مـن الأرض ما يُعطى الفقيرُ من الربِّ

يبيعـون من خلف البحارِ بلادَنا

كأنّا متاع بات للنَّهب والسّـلبِ

ولستُ ألومُ الغربَ إن لمتُ إنَّما

ألومُ بني قحطان مالوا عن الدَّربِ

ومن قصيدة مهداة إلى القائد العربي الكبير فوزي القاوقجي إثر ثورة فلسطين القوميَّة، يقول في جرأة وصراحة منددًا بملوك العرب وأصحاب السموّ لتردُّدهم في تأزير قضيَّة فلسطين، هذا القطر الذي يحتلّ مكان القلب من الجسد من حيث موقعُه الجغرافيُّ من الأقطار العربيَّة ومن حيث حضارتُه الضّميريَّة (الدينيَّة) وقيمتها إلى العالم أجمع:

قسموا البلاد كأنَّما هي ملكهم

وكأننا فيها متاع المشتري

منحوا صعاليك اليهود ثغورنا

ورموا إلينا بالصّعيد المقفر

يا شعب غيرك لا يحلّ قضيَّة

لعبت بها الأهواء همسة أدهر

باعوا حماك وأنت تنظر والدّما

تجري وعيشك كالظّلام الأكدرِ

وذوو الجلالة والسّمو سلاحهم

إن أرغموا برقيَّة المستنكرِ

إنَّ البلاد إذا جفاها أهلها

والأقربون عنت إلى المستعمرِ

يا شعب دونك والسّلاح فلا أرى

منجاة عزّ دونه في الأعصرِ

أمَّا الهزيمة والفرار والانخذال

والاستكانة تلك دون تصوُّري

والشَّاعر يتذمَّر ويسخر من ادّعاء قسم من أفراد الشَّعب بأنَّنا أقوياء، وينبغي علينا أن نستكين إلى قوّتنا ونجمد في مكاننا كالطّود الرَّاسخ يثور ويتمرَّد على هذه الرّوح في قصيدته (أمَّة الحرب) وله قطعة ولعلَّها اليتيمة في شعره من حيث لونُها الموشحي، وهي رقيقة تصوّر نفس الشَّاعر النَّائي عن الوطن، وحنينه إلى الربوع، والقطة وإن كانت ركيكة المعنى هزيلة المبنى، ففهي صور الشَّوق وحنين المهاجر المعنى:

هل رجوع للمعنى الغريب للربوع

فالضلوع حنّت لذكر الحبيب والدّموع

مترعات الأسى في كؤوس المسا

أحتسيها عسى تستريح الجفون

وكان ينبغـي أن يقـول: هـل رجـوع للمعنـى الغريـب إلى الرّبـوع، أو إلى المعنـى الغريـب لأن تحـشره القافيـة كـما في حنَّـت لذكـرى الحبيـب والحنـين إلى الذّكـر أقـوى مـن الحنـين للذكـر، ويقـول فيهـا:

غربتـان؛ غربة في البلاد أو هوان

للجبـان يا ربوع الجهاد بالأمان

إنَّنـي لن أعود تحت حكم اليهود

في ثنايـا اللحون قلب أم حنون

هـذا وقـد كانـت ولا تـزال أحاسـيس الشَّـاعر الوطنيَّـة أبـدا الملهمـة، كـما كان هـذا الـثرى بأرضـه وسـمائه، شـيبه وشـبابه، أبـدا الموحـي الأول والأخـير لشـاعر الثـورة القوميَّـة، وفي المهرجـان الشـعبي بذكـرى الثَّـورة العربيَّـة الكـبرى، يشـيد الشَّـاعر بقدسـيَّة هـذه البـلاد، والبلـدان الشـقيقة، حاثًّـا أبنـاء جلدتـه عـلى الـدأب في العمـل، مهـدِّدًا مـن يخـون تراثـه ويعـقّ حـماه في هـذا الأسـلوب:

هذه أرضنا وهذي سمانا

شـاع فيها الندا كريا الورود

فامـلأ الصَّدر من أريج بهاها

وارسـل العين في فضاها المديد

تر جيشًـا من العراق ونجد

زاحفًـا كالجبال تحت الحديد

فـوق خيل كأنَّها برق ليل

عودتها الوغى اقتحام السّـدود

ويرجـع إلى اسـتعراض المـاضي المجيـد ذاكـرًا أنَّنـا لم نـزل أبنـاء أولئـك الصيـد، وأحفـاد هـؤلاء الميامـين، فيقـول:

وقديمـا غزت جحافلنا الغرب

وألقـت أثقالها في الهنود

حيثـما جلت لا تُرى غير عزّ

لبني هاشـم الغزاة الصيد

لم تـزل جذوة البطولة فيهم

تبعـث العزم في الغفاة الرقود

منهم فيصل ملك الشـط

وغازي أخو الفدا والجود

والحسـين الذي رصاصته في التّرك

قدما شـفت قلوب العبيد

وبغـير الرّصاص لن تبلغ الحقّ

ولا بعضـه بغير الجنود

فأعـدّوا لها جنودًا غلاظًا

من شـواظ كالنّار ذات الوقود

فمـن العار أن نظل ضعافا

نحمـل القيد، يا لذل القيود

ويعـود إلى قلب العروبة الخفاق قائلًا:

ومن العار والمذلة أنّا

عـرب أذعنوا لحكم اليهود

طوّحوا بالحسـين، قلب فلسطين

احتواه وأحنثوا بالوعود

حقروا شأننا فهنَّا

عليهـم ووثقنا فكان خفر العهود

إلى آخـر هـذه الأبيـات الوطنيَّـة، وهـو لا ينـسى مـن أن يهـدِّد مـن تسـوّل

لهـم نفوسـهم أن يدوسـوا الـتراث، ويلجـأ إلى موئـل العروبـة وكنيهـما الركينـين، فيقـول:

فاحذروا سـاعة تهيج بشر

واحـذروا غضبة الكريم الحقول

فلدينـا من العروبة درع

هم أسـود العراق، وابن السعود

والعبّـوشيّ عصبـي في قوميَّتـه، مـسرف في عصبيَّتـه، فهـو يؤمـن أشـدّ الإيمـان أنّ السياسـة الاسـتعماريَّة بفلسـطين ليسـت إلَّا حربًـا صليبيـة، وهـو في هـذا يتَّفـق مـع الأسـتاذ أحمـد حسـين رئيـس حـزب مـصر الفتـاة كلّ الاتفـاق، فهـو نـازيّ في تفكـيره وأدبـه وفنِّـه.

الأستاذ عبد الرَّحيم محمود

لا مناص هنا من الإشارة إلى أنَّنا لم نقف على جميع ما أنتجه هذا الشَّاعر في غضون الثَّورة العربيَّة الكبرى، وفي غضون الثَّورات التي سبقت عهد الثَّورة عام ١٩٣٦، وعدم وقوفنا على إنتاجه الثَّوروي، لا يمنعنا من الإشادة باسمه، ولو في الأبيات القليلة المنشورة له في مناسبات متباينة. كما وأنّ قسمًا من قريض الأستاذ برهان الدّين العبوشي، لم يكن من وحي تيك الثَّورة، وإن كان كلّ إنتاجه موجهًا شطرَ الثَّورة الفلسطينيَّة، بل الثَّورات المقبلة، كما لمحنا ذلك في أكثر من قصيدة واحدة.

فالشَّاعران الثَّائران ساهما في بعث الهمم واستفزاز الشُّعور مساهمة كبيرة، وإن كانا يختلفان في المبدأ والنّزعة، فالأوَّل نازي في تفكيره وأدبه وفنِّه كما ألمعنا في السُّطور القريبة، وهو إلى جانب هذا لسان حال جمعيَّة الشُّبَّان المسلمين، والجمعيَّة المشار إليها لا تقلّ في طائفيَّتها ورجعيَّتها عن جمعيَّات الإخوان المسلمين، والهيئات الطَّائفيَّة المنبوذة.

والثَّاني اشتراكيُّ النَّزعة ذو مبدأ ومذهب في الحياة الإنسانيَّة، وهو إلى جانب هذا معلِّم الأدب العربيّ في كليَّة النَّجاح، وشاعر ثائر من شعراء هذا الوطن، وأديب مطبوع حفّز الجيل العربيّ الجديد إلى تدفع الأذى النَّاشب في كيان حماه، كما حفَّز النُّفوس في إيقاظ الغفاة، وتنبيههم شطر خطر كبير يهدِّد كيانهم، إذا هم لم يبادروا إلى العمل، فهو يناشد

الشَّعب من عامل وفلّاح وناشئ وكهل، كما يناشد حملة الأقلام ورجال الفكر والقلم إلى أن يشقّوا طريقهم في الحياة بجرأة وصراحة في قوله:

خُذوا ريشَةَ الفَنِّ خطوا لنا

سُهولَ البِلادِ وَوِديانِها

مِن الدَّمِ خطوا رُؤوسَ الجِبال

وَهامَ الرَواسي وَكُثبانها

مِنَ العرقِ العَذبِ رَوُّوا السُهول

وَرَوضَ البِلادِ وَبُستانها

هُوَ الغَدُ لَوحتكُم يا شَباب

فَخطّوا مِنَ العَزمِ عُنوانها

غَد لَوحَة في أَيادي الشَباب

فَلا تُسلِموا الأَمرَ عميانها

وفي مجلة «الغد» التقدُّميَّة، مجموعة أبيات للشَّاعر الحرّ، تحت عُنوان «أفكار في لزوم ما لا يلزم» يثور شاعرنا فيها ثورة مضريَّة، متهكِّمًا على المعتقداتِ البائدة والعالقة في أذهان فريق من النَّاس يجنحون إلى الاستكانة والاستنامة، ويؤثرون الخنوع والصّبر على التمرُّد والثَّورة

في الظـروف الجائـرة والأوضـاع القاهـرة. ففـي هـذه القطـع الصَّغـيرة يقـولُ الشَّـاعر:

بَغى في قِسـمَةِ الأَرزاقِ ناسُ

وَقالوا هكَذا قَسَمُ الإلهُ

وَقالـوا إِنْ أَحَبُّ اللَّهُ عَبداً

بِرِزقَتِهِ المقدِرَةَ اِبتَلاهُ

دَعَونـا إِن يَكُن هذا صَحيحاً

يَـرَ الفُقَراءُ مَعبوداً خَلاهُ

رَأَيـتُ القَلبَ إِمّا ضاقَ صَبراً

بِمَحبوبٍ لِحِرمانٍ سَلاهُ

لَقَـد وَصَفوا الإِلهَ بَشَرٍّ ظُلمٍ

بِمـا كَذَبوا تَنَزَّهَ في عُلاهُ

ويبـدو لي أنّ الأسـتاذ محمـود متأثـر بشـاعر العـراق الكبـير المرحـوم معـروف الرّصـافي، وتأثـره في أداء المعنـى والحبـك والتَّهكُّـم ظاهـر بـين قصيـدة الرّصـافي التَّائيـة التـي يسـتهلها بهذيـن البيتـين:

أأم المؤمنين إليك نشـكو

مصيبتنـا بجهل المؤمنات

فتلـك مصيبة يا أمّ منها

نـكاد نغصّ بالماء الفرات

ولعـلَّ نفسـيَّة شـاعرنا تتـواءم مـع نفسـيَّة الرّصـافي في أكـثر مـن قصيـدة واحـدة، كـما تتـواءم في المبـدأ والنّزعـة، وفي النّضـال، ترسـم لنـا نفسـيَّة صاحبنـا حيـث يقـول:

جعلـت نضالي الظلم هما وديدنا

لأني بـه حلت لدي المعاضل

فأحببتـه حب الحياة لفضله

عـليّ، ولا تنسى لدي المفاضل

فـوا عجبا إن نلت غاية مطلبي

غـدا فيم ألقاني أعود أناضل؟

وإن وصلـت أرضي رغابي مطيعة

فهل لسـمائي عن وصالي عاضل؟

وفي «أنشـودة التَّحريـر» في يـوم القادسـيَّة بحيفـا، في هـذا المهرجـان الشَّـعبيّ يفتتـح شـاعرنا قصيدتـه الرَّائيَّـة، وهـي مـن وحـي الثَّـورة، ثـورة التَّحريـر الكـبرى، وفيهـا يتطـرَّق إلى معركـة القادسـيَّة، والغـزات العربيَّـة التـي قـام بهـا الأجـداد لإحقـاق الحـقّ، وإزهـاق قـوى الظُّلـم والظَّـلام، مبرئـا الفتـح العـربيّ مـن الاسـتعمار، ووصـمات الاضطهـاد، ومناشـدًا أبنـاء وطنـه إلى تتبُّـع خطـى أولئـك الأماجـد، ففـي مطلعهـا يتغنَّـى بالمجـد الأثيـل، مغـردا ميـت الأمـاني بهـذا القـول:

إنَّ أيامنا ابتسـامة ثغرٍ لم

يـدر مثلها بثغرِ الدُّهورِ

نشرت ميت الأماني وأحيت

أملًا عارمًا بقلبٍ كسـيرِ

فـرح الكوخ حين لاحت على

الدَّهـرِ وريعت ممردات القصورِ

ذاكَ أنَّ الظّلـوم يكره فجر

الحـقِّ كي لا يزول ليل الفجورِ

قـوم طه بين الخلائقِ قوم

قـد أعدّوا لكل أمر خطير

قوم حريَّة أعدّهم الله

ليتلوا رسالة التَّحريرِ

في عبيـد يصبّ كسرى عليهم

سـوطَه ظالمًا وجام النّكيرِ

واسـتجارَ الحقُّ المضيعُ بالعربِ

فكانوا الغياثَ للمسـتجيرِ

ويمـضي في هـذا الكـمّ وعـلى هـذا النَّحـوِ مـن تبرئـةِ الغـزوات العربيَّـة مـن التُّهـم، فالفتوحـات كانـت لتحريـر الشُّـعوب لا لاسـتعبادها وإذلالهـا، والشَّـاعر يستشـهد بالتَّاريـخ الحافـل، بالمآثـر كـما يستشـهد بروايـات الأزمنـة:

صرفت شـدَّة الجوارح فيهم في

الطَّريق السّـويّ تقوى الصّدور

فـروى عنهمو الزَّمان حديثًا

ضمَّختـه فعالهم بالعبيرِ

لم تك القادسـيَّة الشَّهير غير

السّـطر في سفر عزّ شهير

وينتقـل إلى مخاطبة أبناء الحمى:

واجتـماعُ القلوبِ أضمنُ للأمرِ

المرجى من التَّشـتيتِ النَّثيرِ

عبرة ليتنا قد قبسـنا النُّورَ

منها في مدلهمّ الأمورِ

حـينَ صرنا إلى الخلافِ فقدنا

سربنا ضلّة لسـوء المصيرِ

ويقولُ:

نحنُ لم نحمل السُّـيوفَ لهدرٍ

بل لإحقاقِ ضائعٍ مهدورِ

نحنُ لم نرفعِ المشـاعلَ للحرقِ

ولكن للهديِ والتَّنويرِ

نحـن لم نطعنِ الضَّمير ولكن

بقنانـا احتمى طعين الضّميرِ

كان فينـا نصرُ الضَّعيفِ المعنّى

وانجبار المحطَّمِ المكسورِ

وفي هـذه القصيـدة المـدورة الأبيـات يهـدف الشَّـاعر إلى رسـالة خلاصتهـا انوجـاد زعـماء ينـشرون مبادئهـم في جميـع أنحـاء العـالم العـربيّ، ويهـدف إلى نبـذ الزّعامـات الفارغـة، نبـذ القشـور والنّـوات، فهـو يخاطـب الشَّـعب قائـلًا:

أمَّتـي إن تجر عليك الزّعامات

فلا تيأسي، ذريها وسيري

إنَّها إن تسـؤ تسل قوي

الشـعب وتبلو الإقدام بالتأخيرِ

فتضيـع الرّياح أدراجها الجهد

على الشمال وصوب الدّبور

وتلهي الشّـعب المضلل بالسّخف

وتشغله ترّهات الأمورِ

ويختتـم هـذه القطعـة الثَّائـرة بالأبيـات الثّـلاث التَّاليـة؛ هادفًـا إلى ترتيـل

سـورة السَّـلام عـلى الأرض وترنيـم أنشـودة التَّحريـر في الخافقـين.

كنت خير الوجود قد شـهد

اللـه وأحرى الأنام في أن تصيري

القديـم الجميل ريش جناحيك

فرقي في العالمين وطيري

رتلي سـورة السلام على الأرضِ

وغني أنشودة التَّحريرِ

مطلق عبد الخالق

وُلِدَ مطلق عبد الخالق قُبَيل الحرب العالميَّة بأعوام أربعة، واستُشهِدَ في حادثة القطار وهو يسعى إلى تحرير المساجين العرب في معتقلهم، بصحبة الأستاذ وديع البستاني.

كان رحمه الله مشعلًا من مشاعل هذا البلد، وشمعة احترقت لتضيء إلى أبناء العربيَّة سبل الحقّ والخير والعراك، وهو كصحفيّ وشاعر وأديب، عمل في عضون هذا العمر القصير ما لم يعمل مثله من أبناء هذا الوطن إلَّا العدد القليل، وكان المرحوم يعالج الأدواء، ويستحثُّ الهمم ويبعث النُّفوس الرَّاقدة إلى الحياة والعمل، وإن كان ميزانه الاجتماعيّ في الإشادة بالخالدين أو وصف الأوضاع أو رسم الخلجات أقلّ دقة من ميزان الشّعراء المتقدِّم ذكرهم، وفي فلسطين مسقط رأسه يقول الشَّاعر:

فلسطين الشهيدة لن تضيعا

ألم تصغ مرابعها نجيعا

ألم يسقط بها قتلى وجرحى

ألم تستقبل الخطب المروعا

دعت أبناءها للموت جمعا

فلبى الجمع دعوتها سريعا

وبدلت الربوع بها دماء

وبدلـت الدماء بها ربوعا

وأضحـت كيفما قلبت طرفا

تـرى في كل ناحية صريعا

وخرت صخرة الاقصى خشوعا

ومهد يسـوع مما شام ريعا

مآس ما رأى الدهر شـبيها

لهـا مما عرفنا أو قريعا

ويسترسـل في وصف الإضراب العامّ الشَّـامل على هذا النَّحو المؤثر:

فلسـطين الشهيدة ما عراها

ولم تخطـو إلى الجلى سريعا

وتضرب غير عابثة شهورا

وليـس تود تشري أو تبيعا

وتأبى في نعيم الذل شـبعا

وتـرضى في جحيم العز جوعا

ولم تبنـي على هام الضحايا

صروحا باذخات أو قلوعا

نراها اليوم تبسـم للعوادي

وتحتقـر الكتائب والجموعا

تـرى في الطائرات ذباب خصم

يطن وفي مدافعه شـموعا

ولم تحفـل مئات من ضحايا

بـل اتخذت ضحاياها دروعا

ويمـضي صاحـب «تحيَّـة الشُّـهداء» و»يـوم الهـوان» في فتـح القـدس، يمـضي كـما ذكرنـا في وصـف الإضراب العـامّ الشَّـامل الـذي اسـتغرق سـتَّة شـهور عـلى هـذا النَّحـو المؤثِّـر:

هي الحرية الحمراء تسـقى

فتنبـت بالدم الشرف الرفيعا

وتـورق في ظلال الموت مجدا

أثيـلا باذخًا حيا منيعا

فـداك الروح يا وطني المفدى

ونحـن فداك يا وطني جميعا

وكيف تضيع يا وطنا عشـقنا

ونحـن بنيك نأبى أن تضيعا

يدافع عنك ثوار كرام

وشعب دأبه إلا يطيعا

مشى في حلبة الاقدام شـوطا

بعيـدا يدفع الخطر الذريعا

وأمـضى لا يني مئة وعشرا

وخمسـا ليس يأبه أن يجوعا

ولم يعـر الزعامة أي هم

ولم يحفـل أصولا أو فروعا

فإن لم يسـتطع دفعاً لأمر

فأقصى همه أن يسـتطيعا

لقد أقدمت يا شعب المعالي

ولم تحجم فأحسنت الصنيعا

وفي قصيدته «دمعة على الوطن» يمزج الدِّماء بالدُّموع في عواطفهم الحارَّة، ونفحاتهم المتضوّعة و»ضحايانا» دليل آخر على ما ينتاب شاعرنا من المآسي المفجعة، والآلام المبرحة، والأحاسيس المضطرمة، والمشاعر الثَّائرة على القيود والأغلال، يرسلها مطلق تحيَّة تقدير وتبريك:

شباب العرب بوركتم شبابا

أباة الضيم في الجلى غضابا

وبوركتم من الآساد أقوى

قلوبا في الوغى واحد نابا

وبورك ترب سوريا ترابا

حواكم يا ضحاياها الشبابا

فأنتم خالدون وإن لقيتم

مناياكم ولاقيتم صعابا

وهـو إذ يلقـي دمعـة وفـاء عـلى شـهيد الخـضر، إذا بـه يهـدي إلى كل جريـح نكـب في جسـده، ولم يكـن في روحـه، قصيـدة يعنونهـا بـ(لـك في الخلـود) ويرسـل زفـرة حـسرى إلى المغفـور لـه الملـك فيصـل، متطرِّقًـا حتَّـى في مرثاتـه عـن أوجـاع فلسـطين الدَّاميـة، وهـو في كلّ هـذا يرجـع إلى الوطـن في قصيدتـه النّونيـة «نسـمة وطـن» فيرسـل الأبيـات إرسـالا:

قيـل لي: هات في الوطن

شاعر الحبِّ والحزن

إنَّنا اليوم نشتهي

شاعرًا يذكر المحن

ثـمَّ هـو يناجـي شـقيقه صبحـي عندمـا كان في أعـماق السُّـجون، كـما يحيـي صاحـب جريـدة «الدِّفـاع» الأسـتاذ إبراهيـم الشَّـنطي عندمـا كان في منفـاه بصرفنـد، ويرجـع الحنـين بـه مـن جديـد إلى الوطـن فيقـول فيـما يقـول:

إليك، إليك يا وطني

منأى، وفتنة العصرِ

نفاثة واله كمد

يهيم بذكركَ العَطِرِ

إلى أن يعـبِّر عـن حبِّـه الخالـص وتعلُّقـه الأصيـل فينشـد عـن اسـتعداده في تقديـم الفـداء لحيـاة الوطـن الخالـدة:

أنا أفديكَ يا وطني

بروحِ ثائرٍ، أشرِ

ونفس لا تزعزعها

رواسي الخوف والحذر

وقلب فيه موجدة

على الأيام والعصر

وفكر ملؤه ثقة

بعدل اللَه والقدر

فداؤك كل مضطهد

وكل معذب الفكر

يرى الآلام تنهشه

فيصبر صبر مقتدر

يقدس لذة الألم

ويعبد بهجة الكدر

وهل ورد بلا حسك

وهل شهد بلا إبر

وهل نستاف يا وطني

نسائم زهرك العطر

بلا ألم يطهرنا

من الأرجاس والوضر

ويختتم هذه القطعة في تقديس الوطن وتمجيده بهذا الشُّعور وهذا الإحساس:

متى ألقاك يا وطني

وهلا ينتهي عمري

متى قد طال منتظري

متى قد عيل مصطبري

أنا في هذه الدنيا

غريب الدار والوطر

أجـل، فقـد اختتـم قصيدتـه بهـذا الشُّـعور وهـذا الإحسـاس، اختتمهـا في حيفـا، عنـد قمـم الكرمـل الخـضراء اللَّامعـة، حيـث كان يبلـو في ظـرف مـن ظـروف حياتـه العمليَّـة، إنَّمـا كان قائمًـا عـلى رئاسـة تحريـر مجلَّـة النَّفـير في حيفـا، كان يبلـو نوعًـا مـن الشَّـقاء، لم يكـن الأوَّل مـن نوعـه، فهـو أبـدًا يحـسّ بأنَّـه غريـب عـن هـذا العـالم، بكائناتـه النَّاطقـة، وبـأنَّ ذاك العـالم بتلـك الكائنـات غريـب عنـه.

الآنسة فدوى عبد الفتاح طوقان

أمَّا الآنسة فدوى عبد الفتَّاح طوقان شقيقة شاعر فلسطين الكبير المرحوم إبراهيم طوقان، فقد فرغت هذه الحياة إلَّا من إبراهيم والشِّعر كما تقول، ومعظم شعرها في الرِّثاء، وقد أكسبها هذا اللَّون الحزين مسحة شعريَّة رائعة تتفطَّر بها القلوب، وتتشرَّخ لها الكبود، وللأديبة الشَّاعرة قصيدة ميمية تتفجَّر ألما وحزنًا، نُشِرَت في مجلة الرِّسالة الأدبيَّة عام ١٩٣٨ بعُنوان «أبي» مهداة إلى النِّبراس الذي يضيء أفق حياتها، إلى ذلك العزيز «الذي يتململ الآن على فراش المرض في ظلمات السِّجن، إلى أبي»، وفي هذه القصيدة تتطرَّق إلى حياة الوطن بعد مناجاتها لوالدها فتقول:

وطني، بي مما عراك شجون

وبقلبي مما دهاك كلوم

الرزايا حلت بساحك والأيام

جارت والبؤس فيك عميم

الأيامي، ويا لبؤس الأيامي

خضب الأرض دمعها المسجوم

رفرفت حولها فراخ مها

زيل براها الشقاء فهي رسوم

أجنـحٌ ما نمت قوادمها الزغبُ

وقد هاضها المصاب الجسـيم

هاضهـا اليتم وهي في جدة الريش

ويا شـدَّ ما يلاقي اليتيم

والنسـور الأباة لما استضيمت

ضـاق عنها في الأرض هذا الأديم

أَنِفَتْ عيشـة الهوان وراحت

في سـما المجد والعلاء تهيم

وتمـضي في وصفهـا إلى أن تخاطـب ضحايـا الثَّـورة مـن جبـل النَّـار، وتختتـم الإشـادة بعملهـم في الأبيـات التاليـة:

يـا ضحايا الجهاد في ذمة الله

لأنتم مجدُ البلاد المروم

أيّ نـار كنتم وقود لظاها

لـو وعاها لريع منها الجحيم

قـد تركتم في مصحف المجد ذكرا

هـو باق على الزمان مقيم

سـطرته لكم مواقعُ حُمرٌ

صبغتها جراحكم والكلوم

ولهـا بعـد هـذا وقبلـه مـراثٍ رائعـة، منهـا في تأبـين فقيـدة الأدب العـربي مـي زيـادة، وداود حافـظ طوقـان، وغيرهـما. ومـن شـعر الثَّـورة قصيـدة لهـا بعنـوان «اللـه فيـك وفي بنيـك» وهـي لا تتعـدَّى عـن مناجـاة للوطـن إلَّا في الأبيـات الأخـيرة، حيـث تسـتحثُّ الهمـم وتسـتفزّ الشُّـعور، بعـد أن تسـتعرض معـالم الأندلـس، وتعـرّج عـلى سيشـل والصَّيـد الكـرام بهـا، وبعـد أن تعـبر عـن شـكوى الأقطـار العربيَّـة لكلـوم فلسـطين وتألمهـا لجرحهـا وألمهـا:

شـكواكَ شكواهُ وجرحُكَ جرحُه

تؤذيـهِ إن طافت بكَ الآلامُ

بغـدادُ مصر والحجاز كلاهما

والمسجدُ الأقصى همُ والشَّامُ

قـد ألفت ما بينكم لغة وإن

شـطَّت ديارٌ أو نأت أجسامُ

هتفَ البراقُ بشـجوِه لمَّا رأى

للبغـيِ أركانًا عليكَ تُقامُ

وبعد أن تقولَ:

المسـجد الأقصى تُضامُ حماتُه

الصَّيد الأعزَّة حوله وتُسَـامُ

والأفـرخ الزّغب التي خلفتم

فلق حشـاها هدّها الإيلامُ

بعـد كلّ هـذا تبعـث الهمـم وتحفِّـز العزائـم، فتقـول صارخـةً في وجـه الظُّلـم إلى الجهـاد إلى النِّضـال:

يـا ابنَ البلادِ إلى الجهادِ ولا تهن

أنـتَ الرَّقيبُ على الحمى القوام

إنَّ الشَّـبابَ عزيمةٌ وبطولةٌ

فانهـضْ ولا يقعد بكَ الإحجامُ

فلكـم عددنا من بروقِ وعودِهم

ولكـم رجونا أن يجودَ غمامُ

وإذا البروقُ لدى التّشـوفِ خلبٌ

وإذا الغـمامُ لدى الوفاءِ جهامُ

لا بدَّ من يومٍ أغرّ مشـهر

صاح تردّدُ ذكرِه الأيَّامُ

للحـقِّ فيهِ رايةٌ خفَّاقةٌ

تحنـي رقابهم لهم والهام

يـوم يجيش بكلّ أروع فارس

سيَّان ذل عنده وحمام

تالله ليس يُذَلُّ شـعب لمّه

هدي الكتاب وضمَّه الإسلامُ

سيف الدِّين الكيلاني

وللأستاذ الشَّاعر سيف الدِّين الكيلاني قصيدة عنونها بالوحدة الكبرى، والفكرة كما تبدو لي من قطعته هي شغل لأشواق الشَّاعر الوطنيَّة وأفكاره الشَّاغلة. وهو يرى فيها تحقيقًا لإثبات وجود وطنه العربيّ الكبير تحت الشَّمس، فلقد مضى جيل ونهد جيل من الشَّباب العربيّ في ريعانه الماثل، والشَّاعر يطلب منه تأدية كبرى أمام القوميَّة العربيَّة، أمام المدنيَّة العربيَّة، بل أمام مدنيَّات العرب أو المدنيَّات الإنسانيَّة المقبلة، وفي «الوحدة الكبرى» يضع الشَّاعر أهدافًا ويشيد بسجايا، ويتلمَّس نورًا من جديد من أنوار «العربيَّة» المتماسكة المتضامنة، يضع تلك الأهداف وهو يناجي كوكبًا من كواكب اللَّيل المتألقة السَّاجية بنورها الدُّرّيّ، ومطلع هذه القطعة الشِّعريَّة بيت لا يستسيغه الفنَّان الأصيل، فهو يقول:

دع حبَّ ليلى فليلى اليوم أوطانُ

إنّي بوحدتها صبّ وهيمان

ذلك أنَّ ليلى وتر لا يحفّز الفنّان إلى نسيانها، وما دام الوطن هو ينبوع الحبّ الأصيل لكلّ جمال، وليلى من الجمال، لا بل من قبل الجمال، وجمال القلب، من أجواء الشعر المدوي من عالم الاستشفاف والفداء والموق، ومهما يكن فقد أراد الشَّاعر أن يسلو عن ليلى ويتعلَّق بالوطن.

وليس هذا من شعر الثَّورة، ولكنّي وقفت عند أمنية كبرى تسامر فكر الشَّاعر، فهو يرمي إلى بعث المجد التَّليد وبناء إمبراطوريَّة إسلاميَّة من الهند إلى العراق إلى مصر إلى الجزائر فمراكش، ومن السُّودان في الجنوب إلى فلسطين إلى سوريا إلى تركيا فدول البلقان الإسلاميَّة، وهي لعمري أمنية لا يتمنَّى تحقيقها الأدباء المفكّرون والشُّعراء الثَّائرون، فقد انقضى عهد الإمبراطوريَّات والسّلطنات كما أصبحت حكم الدّول الاستعماريَّة منقضية أو في حكم الانقضاء، ويبلغ الشَّاعر من الإيمان بهذه العقيدة حتَّى يقول محددو هذه الوحدة:

يا وحدة العرب أنت اليوم قبلتنا

تهفو إليك فلسطين ولبنانُ

ملكت قلب شباب العربِ قاطبة

هذي الجزيرة تنشيها وعمانُ

وأرخصت شهداء المجد أمَّتنا

فما ونت مصر في الجلى وتطوان

تسابقوا عصبة يبنون وحدتهم

وفي الطَّليعة سوريا وبغدان

المجـد رائدهم والدّين قائدهم

تعتـزّ بالضَّاد قحطان وعدنانُ

تآلفـت منهم الأرواح واتَّحدت

أهلّة في سـما العليا وصلبان

يظلّـل العلم الخفّاق وحدتَهم

كأنَّ خفقتَه شـدوٌ وألحانُ

ويتوجَّـه الشَّـاعرُ إلى المغفـور لـه الملـك فيصـل بـن الحسـين، باعـث الوحـدة الكـبرى مخاطبًـا إيَّـاه أن يطمـئن إلى رجـال العـرب، فقـد وثـب الشّـيبان حتَّـى:

لـو كان في فلك الجوزاء مطلبها

لطـار منها لها في الجو عقبانُ

بنـاء وحدة قومي منتهى أربي

عقيدة دونها الأرواح قربانُ

هـذه وقفـة لا بـدَّ منهـا للتَّدليـل عـن شـاعرنا الكيـلاني، إذ إنَّنـا لم نقـف لـه عـلى قصيـدة واحـدة مـن وحـي الثَّـورة الفلسـطينيَّة الدَّاميـة، ولعـلَّ هـذه القطعـةَ تنـوبُ عـن وقفـةٍ أو وقفـاتٍ لـهُ بهـذا الصَّـدد، ففيهـا رسـالة تحفِّـز الرِّجـال والنَّاشـئين عـلى العمـل المثمـر والتّضافـر والاتِّحـاد.

عصام حمَّاد

لم يكـن الأديـب الشَّـاب عصـام حـمَّاد مـن شـعراء الثَّـورة وإن تفجَّـرت شـاعريَّته الخصبـة في مناجـاة والـده الـذي خـرَّ صريـعَ الواجـب في ميـدان الجهـاد عـام ١٩٣٦، حيـث قـال:

إذا كان دمـعُ العينِ أصبحَ عاصيًا

سـأجعلُ قلبي في الجوانحِ باكيا

خلـت منكَ دار يا أبي قد عهدتها

أضـأتَ بها أركانَها والنَّواحيا

وأقفـرتِ الدّنيا من الجودِ والنَّدى

وأصبـحَ وردُ الفضلِ بعدَكَ ذاويا

وفيها يقول:

حـرامٌ علينا الدَّمع والحزنُ يا أبي

إذا لم نُـذِقْ كأسَ الهلاكِ الأعاديا

حرامٌ علينا الشِّـعر إن نحن لم نعد

نقـدِّم للماضين إلَّا المراثيا

حـرامٌ علينا النَّومُ إن نحن لم نسر

لثـأرٍ ونعرور الربى والفيافيا

حـرامٌ علينا العيشُ إن نحنُ لم نعد

إلى العـربِ هاتيك القرون الخواليا

أجـل إنَّ هـذه القطعـةَ ألهمتهـا أحاسـيسُ الشَّـاعر عقـب فجيعتـه بأبيـه، ولـئن كان يافـع العـود أزغـب الرّيـش لا يسـتطيع أن يحلّـق إذ ذاك، فحسـبه فخـرًا أن يكـون وليـدَ الثَّـورة، لا بـل رضيـع الجهـاد، حيـث اصطـلى هـو وأبـوه بـأوار ذاك العـراك.

والشَّـعر لم يـألُ في إمـدادِ الشَّـعب العـربيّ الفلسـطينيّ باقـات أشـعاره، وعصـير أفـكاره في هـذا الآن، ولنـا عـودة إلى هـذا الفنَّـان الشَّـاب، عندمـا نتنـاول شـعراءَ العربيَّـة في فلسـطين عـلى وجـهٍ أوسـع.

خاتمة

إنَّ المرحوم الشَّيخ إبراهيم الدّبَّاغ من بلابل هذا القطر النَّاهض، ومن شعراء الشُّيوخ، نزح إلى وادي النّيل، واتَّخذ الكنانة وطنًا ثانيًا له، إلَّا أنَّ نزوحه عن فلسطين لم ينسِه وطنه الأوَّل، كما لم ينسه ما كان يقاسي حماه من محن وأرزاء تعاقبت على ثراه الخالد.

وكذلك الأستاذ الشاعر محيي الدين الحاج عيسى الفائز بإحدى الجوائز الأدبيَّة في مسابقة لندن الشِّعريَّة من مواليد صفد، وأحد شيوخ الشُّعراء في هذا القطر، إلَّا أنَّه لم يهجر حماه إلا في سنيّ دراسته العالية بُعَيد الحرب العالميَّة الأولى الضّروس.

ونحن لم نقف على قريض ثوروي أو أدب وطنيّ للشَّاعر يهدف إلى القوميَّة العربيَّة، وإن كنَّا نجلّ مكانة هذا المعلِّم الكبير ونقدِّر له خدماتِه الطَّويلةَ في عالم التَّربية والتَّثقيف، فقد مارس مهنة التَّعليم قرابة سبع وعشرين سنة. ولا نشكُّ في وجود قصائد توجيهيَّة له، وأناشيد وطنيَّة يتغنَّى بها طلَّاب المدارس مثل هذه القطعة:

هاجه ضائع الأمل ذاكر دمعه انهمل

فارتدى حلَّة العمل يقطع السَّهل والجبل

رائيا، آسيًا ساعيًا، لا يمل

هزَّه المجد فانتمى لبني العرب معلما

فهو كاللَّيث أقدما يشهد الأرض والسَّما

همه قومه عزمه، لا يفل

هذا وسنخصِّص فصلين كاملين نبحث فيهما عن مآثر هذين الشَّاعرين.

أجل، لقد أظلَّت فِلَسطين شعراء ثائرين لعبوا أدوارًا متباينةً في تأجيج الرُّوح الوطنيَّة، وساهموا مساهمة فعَّالة في ترميم ما هدمته العصور المظلمة، وقوَّضته السِّياسة الاستعماريَّة من كيان الأمَّة العربيَّة بوجه عام، وفِلَسطين العربيَّة بوجه خاصّ.

ولئن أبنت في لمحات خاطفة عن حياة فلسطيننا السِّياسيَّة والاجتماعيَّة والتَّاريخيَّة في المقدِّمة، واستعرضت صورًا من الأدب القوميّ الخالص والشِّعر النَّابض بالحياة، فما أتيت بسجل أدبي شامل يضمّ بين دفّتيه فيما يضمّ جميع مواقف هذا الرَّعيل، ولا جئت بتأريخ كامل لحيوات شعراء فلسطين العربيَّة في ثورتها القوميَّة، ولكنّي أتيت بشيء جديد يصلح أن يكون أساسًا لعمل أدبيّ كبير، ونواة لتأريخ الحركة الثَّقافيَّة والأدبيَّة في هذا الرِّحاب المتوثِّب.

وإنَّه لمن معزِّزات الأمل أن تظلل فلسطين شعراء آخرين لم يساهموا في أثناء أعوام الحرب الأخيرة والعامين الماضيين فحسب، بل كان لهم نصيب في الثَّورة الفلسطينية الكبرى، كما كان لهم سهم وافر في تطوير الوعي القوميّ في مناسبات مختلفة لا ينكرها إنسان، إلَّا من تجرَّد من إنسانيَّته، وأخصّ بالذِّكر منهم الأستاذ الأفغاني، ومحمود الحوت، وعبد

المنعـم الرِّفاعـي قنصـل شرق الأردن السَّـابق في سـوريا ولبنـان، وحسـن البحـيري، وديـاب ربيـع، وسـعيد العيـسى، ومحمـد العدنـاني، وإسـكندر الخـوري البيتجـالي.

وسـوف نتنـاول ترجمـة حيـاة كلّ منهـم مـع عـدد آخـر لم أتطـرَّق إلى ذكرهـم في هـذا الكتـاب، إذا وافونـا بقصائدهـم، عندمـا نضـع سـجلًّا حافـلًا بأعـمال شـعراء العربيَّـة في فِلَسـطين، ولـن يكـون هـذا بعيـدًا.

وسـيرى قـرَّاء العربيَّـة أنَّنـا سـنمضي في إنتاجنـا القابـل سـائرين بِمُثُـلِ القوميَّـة العربيَّـة إلى هدفهـا الأسـمى؛ مخلِّديـن آدابنـا وتراثنـا، متدفِّقـين مـن أعماقنـا بـكلّ مـا تهفـو إليـه ذاتيَّـة تلـك القوميَّـة مـا دامـت أشـجار الخـضراء تزيِّـن كرمـل حيفـا، ومـا دامـت أمـواج بحـر الـرُّوم تصطخـب متكـسِّرة عـلى صخـور الشَّـاطئ الأزرق.

لقد مثّل النشر عبر العصور أداةً للتمدّد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قُدرة استثنائية على التجدّد والتنوّع في حركته وتحوّلاته التقنية، بدءًا من الإيماءة ومرورًا بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوءًا مُتعدّد الطبقات، يَقبضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيّرة بفعل الزّمن.

إن تمدّدًا على هذا النّحو، يمكنه أن يقلّص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقّل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحيّة لذاكرة لا تغيب.

فتلك التحوّلات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأتِ صدفةً، إنها انبثاقُنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الوسيع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النّشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقُرّاء.

وزير الثقافة
عماد عبدالله حمدان